

بَيِّنَاتُ الْأَكْبَادِ

أو

أَبْرَزُ صِفَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تأليف

الدكتور عبد الرحمن بن عبد الحليم

وزير مصر المفوض في العراق والمملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبعة د. طه البياض الجبلي وأولاده بمصر

١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م / ٨٢٦

بَطْنُ الْأَبْطَالِ

او

أَبْرَزُ صِفَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تأليف

الدكتور محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد

وزير مصر المفوض في العراق والمملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبعة مطبوعتي الباب الحلي ودار نشر بصر

١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م / ٨٢٦

مقدمة

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام

الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامعة الأزهرية

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

١

هذه أحاديث أذاعها الأستاذ عبد الرحمن بك عزام منذ سنتين ، فتلقاها المستمعون بالاستحسان والشكران ، وود كثير منهم أن تنشر ، لينتفع بها من لم يسمعها ، وليتيسر لمن سمعها أن يقرأها متتابعة متصلة ، أخذة حقها من الإيمان والتدبر ، معطية القارئ نصيبه من الفائدة والغبطة .

٢

وقد أحسن الأستاذ عبد الرحمن بك عزام إذ اختار للإذاعة موضوعاً رائعاً جليلاً ، فيه من العبرة والعظة ، ومن المثل والأسوة ، ما لا ينفد على طول التفكير والتدبر ، هو سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . وأحسن مرة أخرى حين تناول السيرة من الناحية الخلقية ، والناس اليوم أحوج ما كانوا إلى أن يهتدوا بأخلاق محمد ، ويقبسوا من نوره . تناول السيرة المحمدية ، فبين أخلاق الرسول الكريم ، وفصل القول في صفاته الكريمة ، على قدر ما وسع الحديث ، وأذن المقام . وزاد إحساناً إذ استخلص هذه السيرة الكريمة من الحوادث ، فقرنها بحُججها ، وعرضها في نور براهينها ، فلم يرسل القول دعاوى يُعوزها البرهان ، ويُلتمس لها الدليل ، بل جاء بالدعوى في شهود عدل ، من الوقائع البينة ، والروايات الصادقة .

٣

تكلم المؤلف عن بحته صلى الله عليه وسلم عن الحق، وثباته عليه، وعن شجاعته، ووفائه، وزهده، وقناعته، وتواضعه، وتعبده، وعفوه، وصفحه، وبره ورحمته، وفصاحته، وبلاغته، وحسن سياسته، وحكمته في تصريف الأمور، وعن أثر الدعوة المحمدية في الفرد والجماعة، فأبان للناس أروع ما عرف البشر من سيرة، وأجل ما وعى التاريخ من خُلق، وأعلى ما روت الأيام من عظمة، عظمة النفس، المستمدة من صميم القلب، ومكنون السرائر، العظمة التي لا يكسبها الإنسان بماله أو سلطانه، أو منصبه أو جاهه، ولكنها مشتقة من نفسه، مفطورة في خلقه، لا يزيدها الرخاء وتنقصها الشدة، ولا يظهرها الفنى ويخفيها الفقر، ولا يكبرها سلطان ويصغرها زواله، ولا يقويها نصر وتضعفها هزيمة؛ العظمة الثابتة في نفس العظيم ثبات قوانين الله في أرضه وسمائه، والسارية في أعماله سرّان إرادة الله في سننه « فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا »

هذه هي السيرة الرائعة، التي تناول بعض نواحيها الأستاذ عبدالرحمن بك عزام، فعرضها في جلالها وجمالها، تحدوها البراهين، وتحف بها الأدلة، وتتجلى فيها النفس الإنسانية في أكل صورها، في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

٤

قد أحسن المؤلف، وإنا لندرجو أن يكون لكتابه من الفائدة والنفع ما يلائم هذا الإحسان، ويكافئ المشقة التي تحملها، والمقصد العظيم الذي قصده، والإخلاص الذي يملأ نفسه، ويتجلى في كل سطر مما كتب، والله يُحسن جزاءه، وهو لا يضيع أجر المحسنين ٧

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أردت أن أذيع أحاديث في سِيرِ أبطال العرب ، وكمْ نَشَأَتْ هذه الأمة الكريمة من أبطال . فلما تَبَتَّعْتُ سِيرَهُمْ ، وَرَقَيْتُ في درجات البطولة درجة بعد أخرى ، انتهيت إلى الذروة العُلْيَا ، التي طَمَحَ إليها أولئك الأبطال فسمت بنفوسهم ، والمثل الأعلى الذي نظروا إليه فأشْرَبَتْ قُلُوبُهُمُ العِظَمَةَ والبطولة .

وبحثت فيما وراء بَطُولَتِهِمْ من أسباب ، وما قادم إليهما من هَدْيٍ وتعليم ، فاتَّهَيْتُ إلى المورِدِ الذي صَدَرُوا عنه ، والمنزِلِ الذي رَحَلُوا منه . فإذا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذروة العُلْيَا التي طَمَحُوا إليها ، والمثل الأعلى الذي سَمَوْا إليه ، وإذا هَدْيُهُ مصدر بَطُولَتِهِمْ ، ومبدأ سِيرَتِهِمْ .

فحدثت نفسي أن أبدأ بسيرة بطل الأبطال وإمامهم ، فأجلت الرسول الأعظم أن أسميه بَطَلًا ، وأتناول سيرته في حديث الأبطال .

ثم قلت . إنها أحاديث ، تخاطب المصدِّق والمنكِر ، والمسلم وغير المسلم ؛ فلا بد أن أتحدث عن سيد البشر ، كما أتحدث عن البشر ، ليُضَعِيَ إلى الحديث ضروب الناس ، على اختلاف أديانهم ، وتفرُّق مذاهبهم . وسترتقي هذه السَّيْرَةُ ، لاحتِالَةٍ ، بمستمعها إلى الغاية التي ينقطع دونها كل بطل - إلى الرسالة التي تسمو بصاحبها عن البطولة وحديث الأبطال .

فأجمعت الكلام في السيرة الخالدة ، على قدر ماوسع علمى ووقتى . وأردت أن تكون فاتحة لأحاديث طويلة في بطولة العرب ، وَبَسْمَلَةً للسير الرائعة في تاريخ البشر ، فحالت حوائل دون المُنْصَى في الأحاديث إلى غايتها ، فوقفت راجياً أن تتاح الفرصة لى أو لغيرى لِيَتِمَّ الحديث .

وأشهد أنى لم أبلغ من تجلية السيرة ما يكافى عظمها ، ولما قصدت إليه ، ولكنها فاتحة أرجو أن يكون وراءها أحاديث مستوعبة في السيرة الكريمة ، على هذا النمط . والله يُهَيِّئْ لنا من كل أمر رَشَداً ، ويَهْدِينَا للتي هي أقوم ، بالافتداء بسيرة سيد البشر ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الرحمن عزام } ٢٢ من رمضان سنة ١٣٥٧ هـ
١٥ من نوفمبر سنة ١٩٣٨ م

١ - البحث عن الحق والثبات عليه

إن ذكرى الأبطال ، والتحدّث عنهم ، لمن أحبّ الذكريات ، وأطيب الأحاديث ؛ ذلك لأنهم أعلام الهدى في تاريخ البشرية ، وأنهم المنارات في بحر الظلمات .

ومن هؤلاء الأبطال من امتازوا باتساع دائرة تأثيرهم وسلطانهم ، فلم تقم في وجوههم عقبات العصبية ، ولا عقبات الزمن .

أولئك هم المبرّزون في تاريخ الإنسانية ، وأولئك هم الذين كان لإصلاحهم الخلود والأثر الباقي ، وأعظم هؤلاء هو : محمد صلى الله عليه وسلم ، بإجماع المفكرين . يقول فيه - كـرلايل - كان مولده مبعثاً للنور من الظلمات . ويقول السير مؤير : لم يكن الإصلاح أعسر ، ولا أبعد منالاً منه وقت ظهور محمد ، ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تمّ ، كالذي تركه عند وفاته . ويقول ليونارد : إن كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله ، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له ، وفنى في خدمته بقصد شريف ، ودافع عظيم ، فإن هذا الرجل بلاريب هو محمد نبيّ العرب . وفي دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمد النجاح ، الذي لم ينل مثله نبيّ ولا مصلح دينيّ في زمن من الأزمنة . ويقول بوزورث اسمث : إن محمداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق .

فمحمد الذي هو في نظر المسلمين بطل الأبطال ، هو في نظر المفكرين من أهل الملل الأخرى ، أكبر المصلحين على الإطلاق ، فلا يحقّ لنا أن نتحدّث عن البطولة دون أن نشرف حديثنا به أولاً .

قبل سبع سنين وقفت بقبر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مأخوذاً

مأسوراً لهذه البطولة ، فكنت أجد أمام الضريح طيبَ المقام ، كما أجد في تلك الحاضرة التي توحى أعظم ذكرى ، ريح الخلود .

هنا روح لا يزال يشرق من غيابة الماضي ، هنا الرجل ، هنا بطل الأبطال .
وأيّ الناس لا يجد في أحد الأبطال مثله الأعلى . كنت إذا هممت بالانصراف خلقت ورأى كل الرجاء ، وكل المقصود ، وإذا أقبلت صاحبنى إلى القبر خشوع من الحبّ والإكبار . فأى النواحي لمحمد هى التي ملكتنى أكثر من غيرها ؟ ذلك ما سأحاول الكشف عنه في أحاديثي .

كانت ناحية الرجولة تهزّ مشاعرى ، وستهزّ مشاعر الناس مدى الدهر ، سواء آمنوا أم كفروا . فلولم يكن محمد هذا الرسول الكريم معدّاً بالفطرة للرسالة العظيمة التي قام بها ، لما كان رسولاً . ولولم يكن ذلك الروح المشرق أهلاً للاتصال بالقوى الإلهية ، اتصالاً فوق العادة ، لما أمكن أن تلقى إليه كلمة الله . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ^(١) » .

فحمد خلق عظيمًا قبل أن يوحى إليه ، وقبل أن يكون رسولاً .

نفر منذ صباه عن عبادة الأوثان ، وهى آلهة آبائه ، ومصدر عزّتهم في جزيرة العرب كلها . وكان منذ صباه الصادق الوفى ، المحبوب المبجل في قومه ، فسماه قومه الأمين .

وكان فضله ظاهراً منذ شبابه ، فدعته امرأة من صواحب الثروة الواسعة في قريش ، ومن أعلاها نسباً ، إلى التزوج بها مع علمها بفقره .

ولما وقف لأول مرّة على الصفا يدعو عشيرته إلى دينه قال : رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقين ؟ قالوا ماجرّ بنا عليك كذبا . قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

كان قبل الرسالة أشدّ الناس نفورا من الظلم ، وهضم حقوق الضعفاء ؛ فما تحمّس لعمل في الجاهلية تحمّسه لحلف الفضول ، وهو أشرف حلف في العرب . وسببه أن رجلا من زبيد ، من أهل اليمن ، باع سلعة من العاص بن وائل السهمي ، فظلمه بالثمن ، فذكر ظلامته في قصيدة مطلعها :

يَا آلَ فِهْرِ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ بِيْطُنٍ مَّكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

فلما سمع بنو هاشم ذلك دعوا إلى تعاقد وتعاهد سُمِّي حِلْفُ الْفُضُولِ ، فلا يجدون بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ، ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى تردّ عليه مَظْلَمَتُهُ .

وفي هذا الحلف يقول محمد صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحبّ أن لي به حُمْرُ النَّعَمِ ، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت » . فنصرة الفقير والضعيف ، هي أحب الأمور إلى نفسه .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم كامل الخلق والروءة ، وعاش ولم يكن للبيئة سلطان على نفسه ، بل كان طلب الحق والثبات عليه ، أئين صفاته الحميدة .

وسنضرب بعض الأمثال على تلك الصفة البارزة في حياة بطل الإسلام الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

انظروا إليه وقد وُلِدَ في بيت رياسة مُتَوَارِثَةٍ ، عن هاشم عن عبد مناف عن قُصَيٍّ . قُصَيٍّ الذي دانت له الرقاب ، واستأثر في مكة بالسلطان ، وانقرد قومه قريش بالقيام على دين العرب ، ورعاية أصنامها ، وسدانة كهبتها ، والسقاية والرفادة ، وما إلى ذلك من المناصب ، التي ترفع الذكر في طول البلاد وعرضها .

فهل منع هذا الميراثُ محمداً من طلب الحق والثبات عليه ؟ كَلَّا ! لقد سفّه أحلام آبائه ، ودعا إلى هدم النظام الديني ، الذي كان به فخر عشيرته وسلطانها .

انظروا كذلك إليه في بني عبد مناف ، وبين بني هاشم والمطلب ، وفي بيت يلقي رعاية لم ينلها أحد من صبية هذا البيت . فهو الوحيد من البنين والحفدة ، الذي كان يجلس على فراش جده سيّد القوم .

كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا ، حتى يخرج إليه ، ولا يجلس عليه أحد من بنيه ، إجلالا له ، فكان رسول الله يأتي وهو غلام ، فيجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ، فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لثأنا. ثم يجلسه معه عليه ، ويمسح ظهره بيده ، ويُسرُّ بما يراه يصنع .

وتهيأ عمه أبو طالب للرحيل إلى الشام في تجارة ، فلما أجمع المسير ضَبَّ^(١) به محمد صلى الله عليه وسلم فرق له ، وقال : والله لأخرجن به معي ، ولا يفارقني أبدا . فخرج به معه ، يحمله في ذلك السفر الشاق الطويل .

هذا التدليل والبرّ الذي حباه إياه جده وعمه ، كان جديرا أن يصرفه إلى دين آبائه ، ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم لم تسكن إلى غير الحق ، فلما وجده ثبت عليه في وجه قومه المدللين له ، والبررة به .

فأىّ مثَلٍ في طلب الحقّ أعظم من ذلك الذي ضربه محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ولما أوفدت قريش زعماءها إلى أبي طالب تُنذره ، وتطلب إليه أن يكف ابن أخيه عنها ، أو تُنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، عظم الأمر على أبي طالب ، وخشيَ دَهَاءَ العرب أن يركبوه مع قومه ، فبعث إلى محمد : إن قومك قد أنذروني ، فأبقِ عليّ وعلى نفسك ولا تُحمِلني من الأمر ما لا أطيق .

فأجاب محمد : يا عمي ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته . وبكى وقام ،

فلما ولى ناداه أبو طالب : أقبلْ يا بن أخى . فأقبل ، فقال : اذهب يا بن أخى ، قتل ما أحببت ، فوالله لأأسلمك لشيء أبداً .

فبكاء محمد فى طفولته ألزم أبا طالب أن يحمله إلى الشام ، وبكاؤه فى كهولته جعله يُعرض نفسه وأهله للهلاك . فلو لم يكن الحق الذى دان به محمد قد ملك قلبه ، فلا يرى سواه ، لكان وفاء عمه له هذا الوفاء ، كافياً لصدّه عما هو فيه ، أو كان كافياً على الأقل لقبوله هُدنة يُفرج بها عن عمه وأهله كرههم . فأى ثبات على العقيدة أعظم من هذا الثبات ، وأى امتحان للإيمان أكثر من هذا الامتحان ؟ هذا المقام وأبو طالب مهتدّ بالهلاك ، منذر من قريش ، ومن ورائها دهاء العرب ، يستعطف رسول الله لينزل عن رأيه ، فلا يجد إلا الإباء والبكاء . هذا المقام ، والأعاصير تعصف بالرجلين ، وأضعفهما يريد هدم دين الآخر ؛ هذا المقام صورة من أبدع الصور ، تبقى أبد الدهر مثلاً لسعة الصدر ، وحرية الرأى ، والتكافل ، والوفاء ، والصبر ، يقوم فيه رسول الله صورة صادقة لحب الحق ، والثبات على العقيدة .

ثم انظروا صورة أخرى ، هى مثل فى الكرامة ، والوفاء ، وحرية الرأى . انظروا إلى رجل من آل عبد المطلب كان مُولعاً بالصيد ، يخرج كل يوم للقنص ، فإذا مارجع طاف بالكعبة ، ثم مرّ بأندية قريش يسلم على أهلها ، ويتحدث ، وكان أعزّ فتي فيهم ، وأبعدهم عن دين محمد ، هو حمزة بن عبد المطلب . رجع يوماً من قنصه ، وطاف بالأوثان كماداته ، فقالت له جارية : إن أبا الحكم بن هشام (أبا جهل) وجد محمداً هاهنا جالساً ، فسبّه ونال منه ما يكره ، وانصرف عنه ، ولم يكلمه محمد . فغضب حمزة ونار ، وقصد إلى أبى جهل فى مجمع قريش ، وضربه بالقوس ، فشجّه شجرة مُنكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول . انظروا هذه الصورة : أعزّ فتي فى قريش يتقرّب إلى أصنامها ، ويأنس بأنديتها،

يخرج على القوم ودينهم، غضبا لكرامة ابن أخيه ، وتحديا للذين تعرّضوا لحرّيته .
هل هناك أعظم من هذا الوفاء والبر بمحمد ؟

ثم انظروا إليه صلى الله عليه وسلم يشهد هذا الوفاء ، ويرى بنى عبد المطلب
فى فم الأسد ، ولا يترشح عن مقامه ، بل يهزأ بالدينا ، ويقول: « لو وضعوا الشمس
فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر أو أهلك دُونَهُ » .
أرايتم كيف يُعشّق الحق ؟ وكيف يكون الثبات عليه ؟ تلكم أظهر صفات
محمد صلى الله عليه وسلم .

انظروا إليه كذلك فى صورة أخرى : يفاوضه عن قومه عُتْبَةُ بن ربيعة بجانب
الكعبة ، فيقول له : يا بن أخى، إنك منا حيث قد علمت، من البسطة فى العشيرة ،
والمكان فى النسب ؛ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ،
وسفّتهم به أحلامهم ، وعيّنت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم ؛
فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال محمد : قل يا أبا الوليد . قال عُتْبَةُ : إن كنت إنما تريد بما جئت به مالا ،
جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد به شرفا ، سودناك
علينا ، حتى لا تقطع أمرا دونك ؛ وإن كنت تريد به مُلكا ، ملّكناك علينا ؛ وإن
كان هذا الذى يأتيك رتيبا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك ، طلبنا لك الطبّ ،
وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يدّأوى منه .
فلما فرغ قال له محمد : استمع منى يا أبا الوليد : « بسم الله الرحمن الرحيم : حم
تَنزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » . ومضى يتلو عليه ، وكان
ذلك كل جوابه لما عرّضت قريش .

فلو لم يكن الحق الذى ملأ نفسه هو مطلبه الأسمى ، لوجد فى رفق قومه
الخاصمين له ما يطفى من حماسته ، ويسكن من ثورته على دينها وأهلها .

نم انظروا إلى محمد فى بيته بين خديجة وبناتها وخدمها قريراً منعماً . فهى من
أغنى قريش ، وأوسطهم نسباً ، كما ما لها بين يديه ، فخلاً من هموم الدنيا ، ومطالبها
الملحة ، وهما كم دليلاً على طيب المعاشرة والحبة فى بيت محمد قصة زيد
ابن حارثة .

هذا رجل من العرب استرق ، فاشتريته خديجة ، ووهبته لمحمد عبداً مملوكا .
فأعتقه وعاش فى بيته ، فاستدل عليه أبوه ، وجاء ليفتيده ، فقال محمد لأبيه :
إنه حرّ فليختر ما يشاء . فأثر زيد محمداً على أبيه .

ومثل آخر يدل على حاله فى نظر أعرف الناس به ، وهى زوجه . لما جاءه الوحي
لأول مرة ، ورجع إليها خائفاً وجلاً ، تلقته بهذه الكلمة : كلا ، والله ما يُخْزِيكَ اللهُ
أبدًا ، إِنَّكَ تَتَّصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ،
وَتُعِين عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .

ففى قولها وفعلها كل الدليل على ما كان فى بيت محمد من الهناء المنزلية .
فما الذى أخرجه إذن من دعة هذا البيت وسكونه ، إلى الثورة على دين مكة ،
يلقى فيها الأذى والاضطهاد ؟

لا شك أن الذى أخرجه هو شىء أعزّ عليه من زوجه وبنيه ، وعشيرته التى
تُؤويه ، ذلكم هو الإيمان بالحق ، الذى دعا إليه ، والذى لا يبغي غيره ، ولا
يعيش إلا له .

تلكم نفس محمد ؛ خلقتها المتجلى فى كل صورة من صورها ، حب الحق
والثبات عليه .

لقد سألت مرة ونحن في قطار في لندرة أحد كبار العلماء المستشرقين :
هل تظن أن محمداً كان يقول قولاً لا يؤمن به ؟ فقال : لا ! إن أمراً واحداً
لأريب فيه ، وهو أنه كان صادقاً مؤمناً إيماناً كاملاً بما يقول ، وبما
يدعو إليه .

تلك هي الصفة التي لا ينكرها على محمد عدوّ ولا صديق .
فالحق في ذاته هو الغاية التي دأب وراءها ، وخاصم وابتلي ، وهاجر وقاتل لها .
والناس جميعاً طلاب للحق ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وقد ضرب لهم محمد
المثل الأعلى .

ولا يزال رسول الله في ميدان البطولة ، تمرّ بين يديه أبطال العرب وغير
العرب ، كما تمرّ مئات السنين ، وهو المثل الأعلى للثبات على الحق ، والدعوة
إلى أن يكون الناس كافة لله عبيداً ، وفيما بينهم إخوانا .

٢ — الشجاعة

حديثنا هنا يرمي إلى تصوير الشجاعة ، التي انطوت عليها نفس محمد صلى الله
عليه وسلم ، تلك الشجاعة المنقطعة النظير . وقد آثرتُ أن أصورَ لكم حالة
الاجتماع العربي وقت ظهور الدعوة ، ومقدار نفور القوم منها ، لتدركوا مدى الكفاح
الذي كلفه محمد ، ومقدار ما يلزم لمثل هذا الكفاح من الشجاعة . كما آثرتُ
سَوِّقَ أمثلة من مواقفه صلى الله عليه وسلم ، تبين لكم بسالته محارباً ، وشجاعته
النفسية مصلاً دينياً ، وسياسياً ، واجتماعياً .

جاء محمد لقومه بدعوة ، في قبولها قلب حياتهم رأساً على عقب . لم تكن
تلك الدعوة تتناول دينهم وحده ، بل شملت حياتهم في جميع مظاهرها :

فى السىاسة ، وفى الاجتماع ، وفى المال ، وفى البيت . ولم يكن طبعياً ولا مألوفاً أن ينكروا ما وجدوا عليه آباءهم وبلادهم طواعية . فكان إذن لابدّ لهم من ردّ هذه الدعوة ، وقهر صاحبها ؛ ليرجع إلى الصف الذى خرج عنه ، ليعظم حرّماتهم التى يعظّمون .

كانت مكة للعرب محطّ الرحال ، ومصدر الهدى ، إليها يحجّ الناس خاشعين ، وفيها قریش سَدَنَةُ الكعبة ، وُحَماء البيت ، أتاحت لها تلك المكانة الممتازة أن ترحل فى الصيف إلى الشام والعراق ، وفى الشتاء إلى اليمن ، آمنة على نفسها وأموالها وتجارها ، فأثرت واعتزّت ، ومنّ الله عليها بقوله : « لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ، وَأَمَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

فقریش الآمنة ، العزيزة الجانب ، المثرية ، لاشكّ تعادى من يريد لدينها تبديلاً ، ولنظامها تغييراً ؛ ومحمد يدعو أولاً إلى توحيد ، وينذر ثانياً بالبعث ؛ فلاهى راضية بإله غير آلهتها ، ولاهى واجدة فى البعث والحساب الذى ينذرها به ماتعقله أو ترضاه .

وعبادة الأوثان ، وإن بانّت لنا الآن بعد مئات السنين من قبول التوحيد غريبة مُنكرة ، لم تكن كذلك فى عهد محمد ، بل كانت اليهودية والنصرانية موضع سُخرية العرب ومقتهم ، وكانت الوثنية مستقرّة فى نفوس القوم .

والعجيب من شأن هذه الوثنية التى يابأها العقل ، أنها قريبة لغرائز البشر ، فقد ارتدّ إليها بنو إسرائيل سراعاً فى غيبة موسى ، وقالوا : « أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

وعبّد المصريون القدماء آلاف السنين أنواعاً من الأوثان والكواكب

والحيوان ؛ فليس بمعجيب أن نرى قريشاً يعزّ عليها فراق ما عبده آبؤها جيلاً بعد جيل .

ولو أن محمداً قصر دعوته على التوحيد ، وتسفيه أحلام القوم ، لكفى بذلك إعناتاً ، ولكنه دعا كما قلت إلى الإيمان بالبعث ، فاستغربوا ذلك ، واستبعدوه كل البعد ، وقالوا : « إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ » .

سخرّوا من هذه الفكرة ، واستدلّوا بها على ضعف رأى صاحب الدعوة . مشى إليه يوماً أبى بن خلف بعظم بال ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا . ثم فته بيده ، ثم نفخه في الريح محو رسول الله . فردّ القرآن على ذلك بقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »

صدمت الدعوة إلى التوحيد والبعث دين قريش وعقلها فسخرت من الداعي ، ثم هبت إلى الإيذاء والعدوان .

لم يكتف محمد بدعواه هذه الغريبة في رأى القوم ، بل زاد عليها أن دعا إلى تحريم الخمر ، والزنا ، والميسر ، والربا ، وقريش لاتستغنى عن هذه الأربعة ؛ ففيها مُتَعَمُّهُمْ ، وفيها تفاخرهم ، وفيها غنائم و ثروتهم .

فربا قريش كان في القبائل كلها ، ومحمد يريد أن يحرم عليها ما تعدّه من طيبات الحياة ، ومصادر الثروة ، فأثى لها أن تستطيع على ذلك صبراً ؟

ولكى تتصوّروا تمكّن الخمر والزنا والميسر والربا من نفوس القوم ، أسوق لكم مثلاً ، تعلمون منه كيف كانت الرذيلة سلاحاً في يد قريش ، تُنفّر به العرب من دعوة محمد : جاء أعشى قيس إلى مكة يريد الإسلام ، ويمدح الرسول بقصيدة يقول فيها :

وَأَلَيْتُ لَا أُرِثِي لَهَا ^(١) مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَقٍّ حَتَّى تُلَاقِيَ مُحَمَّدًا

نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرُهُ أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا

فلما كان بمكة ، أو قريباً منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش ، فقال له :
يا أبا بصير^(١) ، إنه يحرم الزنا ، فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالى فيه من أرب ،
فقال له : يا أبا بصير ، فإنه يحرم الحمر ، فقال الأعشى : أما هذه فوالله إن فى النفس
منها العلالات ، ولكنى منصرف ، فأترونى منها عاى هذا ، ثم آتية فأسلم . فانصرف ،
فمات فى عامه ذاك .

لم يكتف محمد بالتوحيد ، والبعث ، وتحريم ما طاب لنفوس القوم ، بل دعا
كذلك إلى أمر غريب مستنكر لديهم ، ذلك هو حق المساواة ، وهم الذين قضا
أعمارهم فى التفاخر بالأحساب والأنساب . فما بال محمد يخرج عليهم بالمساواة بين
السادة والعبيد ، ويجعل الناس سَوَاسِيَةً كأَسنان المشط ؟ إنها للكبيرة التى لن
ترضى قريش أن تقره عليها . قريش التى أُنْفِتْ أَبُ تُسَوَّى بالناس ، فخرّفت
لذلك دينها ، وَأُنْفِتْ أَبُ تُقَفِّ عَلَى عَرَفَةٍ ، وَأَنْ تُفِيضَ مِنْهُ كَمَا يَقِفُ النَّاسُ
وَيُفِيضُونَ ، وهى تعلم أن ذلك من مشاعر إبراهيم وفرائض الحج - قريش التى
أُلْزِمَتِ العرب ألا يطوفوا بالبيت فى أثواب جاءوا بها من البدو ، فطافوا عُرَاة -
قريش التى كانت تختص بأنواع الامتياز التى جعلتها لنفسها كما تشاء ، كيف
ترضى لمحمد أن يدعو للمساواة المطلقة ، وأن يقول لعشيرته : يا بنى هاشم لا يجتنى
الناس بأعمالهم ، وتجيئونى بأنسابكم ؟

بل من الغريب أن محمداً ، وهو فى بيت الرئاسة من قريش ، وفى طليعة
الممتازين ، رفض فى الجاهلية ضروب هذا الامتياز ، وسوّى نفسه ببقية الأمة قبل
أن يكون رسولاً يوحى إليه .

لم تستطع قريش صبراً على الدعوة إلى المساواة ، فبطشت بالعبيد ، وقست

على المستضعفين ، الذين وجدوا في قول محمد إنصافاً . ولم يكتف بأن عاب أوثانها ، وأنذرهما ببعث وحساب شديد ، وقوّض جاهها وسلطانها ، وحرّمها شهواتها والاتجار بالربا ، وسوّى بينها وبين العبيد والمستضعفين . بل قام يطلب لهؤلاء العبيد ، والفقراء ، وأبناء السبيل حقّاً في أموال الأغنياء : « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » يؤخذ منهم قسراً ، ويضرب عليهم ضريبة ، وما كان أبغض إلى نفوس القوم من ضريبة يؤدونها مفروضة . فلما مات الرسول كانت تلك الضريبة أول ماعصوا عليه ، وارتدوا من أجله .

ذلك مجمل من القول يصوّر لكم حالة المجتمع الذي قام فيه محمد داعياً إلى الله ، وإلى نظام سياسى واجتماعى بغيض إلى القوم . وقد صوّر ذلك القرآن في أبداع إيجاز بهذه الآية : « وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » . إذا تصوّرت ذلك كله ، أدركتم ما ينبغى لمثل هذا الكفاح من الشجاعة والصبر . والشجاعة والصبر هما عماد البشرية ، يسكانها على الأرض كما تمسكها الجبال أن تميد بمن عليها . وقد ضرب الأبطال والشهداء للناس أمثلة في الشجاعة همى النور في تاريخ الحياة ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وقد امتحنت شجاعة بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم طول حياته ؛ فما تطرّق إليها وهن . هذه الشجاعة لازمتها منذ الصّبا ، فهو فيها المجلّى في الجاهلية والإسلام .

استحلف مرّة وهو صبيّ باللات والعزى ، فقال : لا تسألنى بهما شيئاً ، فوالله ما بغضت شيئاً بغضى لهما .

هذا الصبيّ يتحدث بهذه الجرأة عن آلهة القوم ، لا يخشى بطشاً ، وهو المشهور بالحياء ، حتى قيل فيه : إنه كان أشدّ حياء من العذراء في خدرها .

خرج إلى اليمن في قافلة مع عميه ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، فرأوا في وادٍ فخلاً من الإبل ، قد توحش وجمع ، فتمرض له محمد ، وكبح جماحه .
وفي حرب الفجار وهو دون العشرين كان ينبل على أعمامه .
واعترض القافلة وادٍ مليء ماء ، فهابت الجماعة ، فتقدم ، وقال :
اتبعوني ، اتبعوني .

هذه أمثلة من جرأة الصبا ، ولكن الأمثلة التي نريدها ، والتي ينحني لها أبطال العالم إكباراً وإجلالاً ، هي تلك التي ضربها بعد الرسالة ، وبعد أن جهر بالدعوة وقال الله له : « اضدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » . قال علي :
كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحديق ؛ اتقينا برسول الله ؛ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وهاكم حادثتين ، هما عندى المثل الأعلى في شجاعة المحارب :
فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل صوت ، فتلقاهم رسول الله راجعاً ،
وقد سبقهم إلى ذلك الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس عري ، والسيف في عنقه ، وهو يقول : لن تراعوا .

ويوم حنين وقف على بقلته ، والناس يفرون عنه ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فما رأى أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدو .

ولقد اخترت هاتين الحادثتين من تاريخ طويل ؛ لأن الأولى منهما هب فيها رسول الله إلى مكان الخطر ، قبل أن يتحرك الناس ، وفي الثانية ثبت في مكان الخطر وقد فر الناس . والذين لهم علم بالحرب يعرفون أن بهذين الموقفين تمتحن الشجاعة ، فليس أصعب على النفس من السبق إلى الخطر ، ولا من الصبر عليه وقد استولى الخوف ، وغلب الرعب .

هذه الشجاعة التي امتاز بها أبطال الأمم ، والتي كان لمحمد فيها النصيب الأوفر ، ليست عندى الشجاعة التي اختصّ بها رسول الله ، والتي هي أعلى صفات البطولة. ولكن شجاعته حين خرج على قومه مفاجئاً بالدعوة التي كرهوها، وشجاعته وهو يصابر على الأذى والسخرية ؛ وشجاعته وقد تعاهدت قريش فى صحيفة عُلِّقَتْ بالكعبة على مقاطعة عمه أبى طالب، ومن تبعه من بيت هاشم والمطلب، لحمايتهم له ، فبقُوا فى الشدة ثلاث سنين ، وهو على هذا، دائب على أن يصلّى فى البيت ، ويجهر بالقرآن ؛ وشجاعته وقد بعث أنصاره إلى الحبشة فراراً من الأذى والموت ، وصبره هو بعدهم وحيداً يتعرض للأذى والموت ؛ وشجاعته وقد مات عمه أبو طالب وزوجته خديجة فى أيام متتابعات ، وكان فى عمه وزوجه النصير والوزير ، ثم يبقى بعد ذلك قائماً بمكة ، تمرّ الحادثات عليها كأنها الأعاصير تعصف فى ذروة الطود الراسخ ؛ وثباته فى الموقف وحيداً إذ يعرض نفسه على القبائل ، ويلقى السخرية وأشنع الردّ بالقول والفعل ، حتى إذا ما انصرف كل أنصاره مهاجرين ليثرب ، جاء البيت يوماً بعد يوم يقيم صلاته ونُسكُهُ جهراً ، ويتلو القرآن جهراً .

تلك صور لورسنت وعرضت ، لكانت أبهج ما تنشرح له صدور الأبطال فى كلّ جيل وأمة ، ولجملت إمامته فى الشجاعة النفسيّة مرضية للأجناس والأديان : سوداً وبيضاً ، موحدين ومشرّكين .

تلك الشجاعة النفسية أو الأدبية التي لاتهنّ للسخرية ، ولا تذللّ للوعيد ، ولا نطيش للوعد ، والتي أمسكت الخلق المحمدي ، فكانت سنده الذى لا يتزلزل ، هي شجاعة مقطوعة النظير فى تاريخ البشر .

انظروا إليه وقد سلطوا عليه سلاح السخرية ، وهي أفنك ما يكون بالعزيمة ،

وأقتل ما يكون لحماس الرجال ، هي أفتك من الأذى والاضطهاد .

وقف مرة على الصفا ينادى قريشاً ؛ فلما جاءوا يستمعون أنذرهم حساب الله فتركوه وانصرفوا ، ولم يزد أبو لهب على أن قال : تبا لك ! ألهذا دعوتنا ... ؟ كانوا يتواصون فيما بينهم : « لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » .

فهم كانوا يعلمون أن سلاح الهزء والسخرية أنكى على الدعوة من الاضطهاد والأذى ؛ فلم يغفلوا عن هذه السخرية ، فلما أشار القرآن إلى شجرة الزقوم تخويفاً لهم ، ازدادوا بها طغياناً ، وقال بعضهم مستهزئاً : يامعشر قريش ، أتدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ إنها عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمسكنا بها لنتزقنها تزقماً . ولما أشار القرآن إلى جهنم ، وأن عليها تسعة عشر من الزبانية . قال أبو جهل وهو يهزأ برسول الله : يامعشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ، ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأتم أكثر عددا ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فنزل القرآن : « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » .

كان الرسول إذا جلس مجلساً يعظ الناس خلفه في مجلسه «النضر بن الحارث» وكان قديم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث القُرُس ، وأحاديث رُسُهم وإِسْفِنْدِيَار ، فيقول : يامعشر قريش ، أنا والله أحسن من محمد حديثاً ، فلهوا إلي ، فأنا أحدثكم ، وأنزل مثل ما أنزل الله . ثم يحدثهم عن رستم وإِسْفِنْدِيَار وملوك الفرس

انظروا أيضاً إلى هذه السخرية بمحمد وأتباعه :

ذهب خَبَاب بن الْأَرْت أحد المستضعفين من أصحاب رسول الله ، وكان صانعاً

للسيوف ، ذهب يتقاضى من العاص بن وائل ، أحد عظماء مكة ، أجر ماصنع ، فقال له : يا خَبَّاب ، أليس يزعم محمد صاحبكم أن في الجنة ما ابتغى أهلها ؟ قال خباب : بلى ، قال : فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب ، حتى أرجع إلى تلك الدار ، فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكونن أنت وأصحابك يا خَبَّابُ آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظاً .

وكان الوليد بن المغيرة قد انفرد بالرياسة في مكة ، وأَبُو عُرْوَةَ بن مسعود الثَّقَفِيُّ قد انفرد بالرياسة في الطائف ، فكانوا يقولون تهما : « لَوْ لَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ » . تصغيراً من شأن محمد ، وزرارة به .

لم تزدهم هذه السخرية على إضرارها بالدعوة إلا غفلة ، ولا زادته إلا صبراً واستبسالاً ، فمرت السنون على هذا التهمك والأذى ، والشجاعة النفسية تسنده ، وتعلوبه ، وتقر هيئته ، وتلقى الرعب في نفوس أعدائه .

فلما تحطمت أسلحة السخرية والأذى على جَنَبَاتِ النفس الأبيّة ، وتآمر المشركون على قتله ، خرج مُسْتَخْفِياً مهاجراً ، فكان وهو في الغار يقول لصاحبه « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » .

وابتداً بذلك دور الصِّراع ، الذي لمع فيه السلاح ، كما لمعت النفس التي صقلتها الشجاعة ، فعرف رسول الله كيف يصبر ويرضى ، وكيف يثور ويغضب ، وبقى خالداً تنطوي صفحات الأبطال ؛ وصفحته منشورة تقرأ فيها آيات الشجاعة والصبر ، ويظل بها رسول الله المثل الأعلى .

٣ - الوفاء

والآن نتحدث في وفاء بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم ، في وفائه .
لأعدائه ، وفي وفائه لأصدقائه .

والوفاء هو القوام لمكارم الأخلاق ، به تستقيم الحياة ، وهو ميزان المروءة ،
ومقياس الفضل في الأفراد والأمم ، ولو دان به الناس لوجدوا السعادة كاملة .
يحدث الوفاء في نفس الوفي من الغبطة ما لا حد له ، وفي نفس الموفى له
الرغبة في البرّ والمروءة ، واصطناع المعروف عند الناس . والأمم الوفية تبتغى صداقتها ،
ويُرغب في معاهدتها ، ويوفى لها بذمتها .

انظروا إلى العالم المضطرب الذي نعيش فيه ، أليس عدم الوفاء قوام هذا
الاضطراب ؟ إذا كان الحليف لا يأمن عهد حليفه ، فأنى لأحدهما أن يستقرّ إلى
ضمان من هذا العهد ، يقيه مظنة السوء ، ويكفيه شرّ الخوف ، ويوفرّ عليه نفقات
الاستعداد ليوم الغدر .

لو أن اليهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد بطل الأبطال صلى الله
عليه وسلم ، لما هبط العالم إلى حياة الدسّ والكيد ، والذمّ المحفورة ، والجوار
المنتهك . ولو سار المسلمون على النهج الذي نهجه ، واقتدى بهم غيرهم ، لوضعت
العلاقات الدولية على أثبت القواعد ، التي تكفل السّلم ، وتضمن الإنصاف ، وتستبقى
الكرامة للناس جميعاً . انظروا إلى هذه الأمثال نسوقها ، لتروا صوراً من الوفاء ، هي
أروع ما ينظر إليه الناس .

قبل سنة من هدنة الحديبية ، كانت قریش تحاصر المدينة ، وقد جمعت لذلك

الأحزاب من أهل القرى والأعراب ، فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ، واشتدّ بذلك الكرب ، وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وألقى الرعب في قلوب المشركين ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة ، فنزل الحديبية ، وبعث قريش رسالها إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وهاهو ذا عروة بن مسعود الثقفي رسولها يعود إليها ، يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة : إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قطُّ مثل محمد في أصحابه .

كان محمد في منعة وقوة ، ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطة يسألونني فيها صِلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . فلما جاء سهيل بن عمرو مفوضاً من قريش لعقد هدنة ، يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن ، وهو أن محمداً يسلم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليّه ، ولا يطلب تسليم من لجأ إلى قريش من أتباعه .

ذلك الشرط هاج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إن عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة إلى أبي بكر ، وأخرى إلى الرسول ، ويقول : ألسنا المسلمين ؟ أليسوا المشركين ؟ ألسنت رسول الله ؟ فعلام نُعطى الدَّيَّةَ في ديننا ؟ فيقول محمد : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يُضَيِّعني ؛ ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبل المسلمين بهذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدرکوا سرّه ، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم . وبينما هم على هذه المضاضة ، وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوض قريش « سهيل بن عمرو » ، ولم يكتب العقد ، ولم يمض ، جاءهم أبو جندل مستصرخاً يرشّف في قيوده .

وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه ، وقد انفلت إلى المسلمين من أيدى المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه ، وأخذ بتلايبه ، وقال : يا محمد ، قد لَجَّت القضية بيني وبينك (أى فرغنا من المناقشة) قبل أن يأتيك هذا . قال محمد : صدقت . وأبو جندل ينادى : يا معشر المسلمين ، أأرُدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

تصوِّروا ذلك المقام ، مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الشجاع الذى حدثكم عن شجاعته المقطوعة النظير ، وهو القوى الذى خرج من المدينة زاحفاً بجيش سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له ، تصوِّروه وهو يرى أقرب أصحابه يكاد ينجح إلى العصيان ، ثم تصوِّروا لاجئاً يرُسُف فى القيود ، وهو من أبناء الأعزة فى قریش ، يرسف ، فيها لحمد ودين محمد ، ثم انظروا إليه صلى الله عليه وسلم لا يَحْتال ولا يتردّد ، ولما يكتب ، ولما يمض ، يقول لسهيل : صدقت ، لقد لجت القضية ، ويردّ صاحبه باكياً إلى أعدائه .

تصوِّروا كلّ ذلك ، ثم ليكتب إلى من شاء بمثل واحد فى تاريخ البشر كله كهذا المثل ، يضربه محمد فى رعاية الكلمة التى قالها ، ولما تكتب ، ولما تُمض . ذلك هو أعلى الأمثال فى الوفاء بعهد العدو ، بل أرسل الله محمداً بشريعة فى الوفاء ، تجعل حق الميثاق فوق حق الدين نفسه ، فقد جعل الدية المشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد ، ولم يجعل دية المسلم من قوم ليس بينهم وبين المسلمين عهد . وكذلك حرم نصره المسلم المسلم على من بيدهم ميثاق المسلمين من أهل الملل الأخرى ، فقد جاء فى القرآن : « وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ » . ذلك هو التقديس للعقود والمواثيق ، الذى يبقى أبد الدهر فيه الهدى للناس جميعاً .

هذا وفاؤه لأعدائه إذا عاهدكم ، والآن انظروا معى إلى وفائه لعدوّ قد قتل فى حربته :

كان مطعم بن عدى من أشرف قريش ، وكان رسول الله حين رجع من الطائف ، ولقى من ثقيف منكر القول والفعل ، طلب جوار بعض رؤساء مكة ، ليدخلها آمناً على حياته ، فأبوا ، وقبل مطعم أن يدخلها فى حمايته ، فلما كانت وقعة « بدر » بعد ذلك ، ودارت الدائرة على قريش ، وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدى ، وفيه يقول حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله :

أيا عين فابكى سيّد القومِ واسفحى	بدّمع ، وإن أنزفته فاسكبى الدما
وبكى عظيم المشـرينِ كليهما	على الناس معروفاً له ما تكلمّا
فلو كان مجدّد يخلد الدهر واحداً	من الناس أبقى مجده اليوم مطعماً
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا	عبيدك ما لى ملّ وأخرماً
فلو سئلت عنه معدّ بأسرها	وقحطان أو باقى بقيّة جرهما
لقالوا هو الموفى بجيرة جاره	وذمته يوماً إذا ما تدمما
فما تطلّع الشمس النيرة فوقهم	على مثله فيهم أعزّ وأعظماً

ذلكم رثاء حسان لرجل من المشركين ، مات يحارب محمداً وصحبه ، يستمع إليه صاحب الدعوة ، ويسرّه أن يرى المسلمين يردّدونه .

أرايتم وفاء كهذا وسعة صدر ؟ أرايتم بطل الأبطال يسمو إلى أعلى ماتصل إليه الرجولة والإنسانية الكاملة ، فيبكى المروءة فى عدو هو أحد صرعاة فى القتال ؟ ذلكم هو الوفاء الذى علا فوق كل شىء .

ثم انظروا إلى وفائه للمشركين أيضاً : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل فى عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل فى عقد قريش وعهدها ، فدخلت خزاعة على شرّ كهّا فى عهد محمد . فلما تقضت قريش عهدها معه ، ونصرت حليفتها

بكرًا عليها ؛ ذهب عمرُ بن سالم الخزاعي يطالب بالعهْد ، ويطلب نصر حلفائه ،
فوقف على رسول الله ، وهو في المسجد ينشده ويقول :

يا ربِّ إني ناشدُ محمدًا حَافَ أبينا وأبيه الأتـلـدا
فأنـصـر هـذاك الله نصرًا اعتـدا وأدعُ عبادَ الله يأتوا مدـدا
في فيلقٍ كالبحرِ يجري مُزبـدا إنَّ قريشًا أخـلفوك الموعـدا
* وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكـدا *

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين ، سببًا في الاتجاه إلى
فتح مكة ، فأسرع رسول الله بالتجهز والزحف عليها .

هذه أمثلة سقناها من وفاء بطل الإسلام صلى الله عليه وسلم لأعداء الملة ،
وقد عاهدتم ، أو ذكر لهم صنيعًا ، أو قبل مخالفتهم على غيرهم .
ووفاءه لأصدقائه هو الذي نستنفذ فيه القراطيس ولا تنتهى ، فحياته منذ
الصبا هي البر والوفاء

يقول عبد الله بن أبي الحساء : بايعت ^(١) محمدًا ، ووعدته أن آتية في مكانه ،
فنسيت ، فذكرته بعد ثلاثة أيام ، فإذا هو في مكانه ، فلما رآني لم يزد على أن قال :
لقد شققتَ علي ، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك . وكان ذلك في الجاهلية قبل أن
يُبعث محمد .

وروت عائشة : أن عجوزًا جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها :
من أنتِ ؟ فقالت : جُثمَامَةُ الْمُزَنِّيَّةُ ، فقال : أنت حسّانة ؟ كيف أتم ؟ كيف
حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت : بخير ، بأبي أنت وأمي . فلما خرجت قلت :
يا رسول الله ، تُقبِل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ قال : إنها كانت تأتينا زمنَ خديجة ،
وإن حسن العهد من الإيمان .

(١) بايعت : أى بعث له شيئاً .

وبعد وقعة حُنين ، وفيها كادت هوازن تقضى على الإسلام لولا ثباته صلى الله عليه وسلم ، جاءه وفد منها ، وهى الباغية المستكبرة ، تطلب العفو عن أسراها ، فإذا وجدت لتحرك به رحمته ، وتستثير شفقتة ؟ لاشئ ، فليس أشدّ سواداً من ماضيها معه ، ولكنها وجدت فى وفائه ملجأها ومنتهاها ، فقال رجل منهم : يا محمد ، إن فى الخطأئِ مرضعاتك وحواضنك ، ولو أنا ملحننا^(١) للنعمان بن المنذر ، أو الحارث ابن أبى شمر الغسانى ، ثم نزل منا مثل الذى نزلت ، رجونا عطفه وعأدته علينا . فقال عليه السلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله . وبذلك ردّ على هوازن آلاف الأسرى . تلك هى النفس الوقية ، التى تكرم أمة ظالمة مغلوبة وفاء للبن الذى رضعته فيها ، فهل للناس وقد عفا فيهم أثر المعروف أن يتذكروا ؟

ثم إليكم هذه الحادثة ، فقلبوا تاريخ القادة فى العالم أحياء وأمواتاً ، ثم اذكروا محمداً وصلّوا عليه :

كان يتجهز فى المدينة لفتح مكة ، وكان يخفى أمره ، حتى على أبى بكر وعائشة ، فلما أعلن العزم ، سارع حاطب بن أبى بلتعة إلى امرأة استأجرها ، وكتب لها كتاباً إلى قريش ، وضعته فى شعرها ، وقتلت عليه قرونها ، فعلم رسول الله ، وأُخِذَتِ المرأة فى الطريق ، فلما سأل حاطباً ماحله على فعله ؟ قال : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن ، ما غيرت ولا بدّلت ، ولكنى كنت امرأً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولدواهل ، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر . فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فأنزل الله فى حاطب : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ » .

تأملوا في هذا ، إن وفاء محمد لأصحابه الذين نصره الله بهم في بدر ، جعله يرجو أن يكون الله قد غفر لحاطب حتى هذه القعدة . ثم كان رسول الله في مرض الموت ، فلما اشتدّ به خرج إلى أصحابه ، فصعد المنبر ، وقال : يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأَنْصار خيراً ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأَنْصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم . ثم انظروا أخيراً إلى مقام الوفاء من نفسه ، وهو يقول يوم أحد حين أمر بدفن القتلى : انظروا إلى عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا ، فاجعلوها في قبر واحد . ذلكم هو الوفاء الذي نحن في أشدّ الحاجة إليه ، ولن يستقيم أمر العالم حتى يتذوّقه الناس ، وحتى يؤمنوا به إيمان محمد وأصحابه .

٤ — زهده وقناعته

والآن أتحدّث إليكم في زهده وقناعته صلى الله عليه وسلم ، وقد ضرب فيهما المثل الأعلى للناس جميعاً . للراعي والرعية ، والأفراد والجماعات . انظروا إلى العالم الذي نعيش فيه ، فإنه يشكو الجشع الذي أصاب أهله ، فلا الغنى قانع بآلافه وملايينه ، ولا الفقير راض بالكفاف من العيش ؛ فالمالكون لأعنة المال يصرفونه في شئون الهوى ، والأجّراء كذلك يتطلعون إلى المال من أجل الهوى . ليس المسيطرون أقلّ رغبة في اللهو ممن هم دونهم ، فقد تساوى الأمير والحقير ، وجعلوا هدف الحياة وغايتها شهوات النفس ، ومتاع العيش .

انظروا يميناً ويساراً في كلّ البيئات ، بل في العالم أجمع ، هل ترون إلا خُلُقاً قد انطلقوا للدرهم والدينار ، لا يلوون على شيء ، وانصرفوا لعبادة المال ، فملك قلوبهم ومشاعرهم ، وأصبح رفيقهم في حركاتهم وسكونهم ؟

وهل ترون إلا صِراعاً بين أم اتخذت حبّ المال والفكْب عليه غايتها ، فهو لها الأوّل والآخِر ، والظاهر والباطن ؟ وهل ترون إلا طبقات من الأمم تتطاحن ، ليس لها مطلب إلا السبق إلى المتاع ، واختطاف بعضها ما في أيدي بعض ؟ وهل ترون إلا أفراداً من فاز منهم بالغنيمة تنحى بها جانباً ، وأرخصى لهواه العنان ، في قصور مشيدة ، وجنان ، ومراكب ، ومواكب ، ومتاع ، وغرور ، والناس ينظرون إليهم مع الحسد والإعجاب ، لا يسألون أنفسهم شيئاً عن أصل هذا أو مصيره ؟

تلك الأمم والطبقات والأفراد في صراعها على مواد الحياة قد هوت إلى الحيوانية ، ليسوا فيها إلا كالقطيع يتزاحم ويتطارد ، ليحظى بالعُشب ، أو الكلاب تتهارش وتتخاطف العظام .

هوى الإنسان في سبيل المال والهوى إلى الدَّرَك الذي جاء الأنبياء والرسل جميعاً ليرفعوه عنه ، ويوجهوه وجهة أسمى من الحسّات ، وجهة معنوية مقتصدة في رغبات البدن الزائل ، متطلعة إلى مطالب الروح الخالدة .

جاء بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ؛ والناس على مثل هذه الحال لا يعرفون فضلاً إلا للأموال والأحساب ، ولا يدركون من لذّة التقوى ومتاع الروح شيئاً ، فضرب مثلاً من نفسه في القناعة ، والزهد ، واحتقار الدنيا ، صرف الناس عما هم فيه ، وأخرج الصحابة الزهاد ، الذين جعلوا للحياة الروحية المقام الأول ، فاتخذوا الدنيا مطية إلى ما هو أسمى منها

ضرب محمد عليه السلام المثل من نفسه ، في فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، ضربه وهو محاصر مع أهله في الشَّعب ، وضربه وهو ملتحجٍ إلى المدينة ، وهو يقيم دولة الإسلام فيها ، وبعد أن أقامها ، وبعد أن ملك الأموال والرقاب في جزيرة العرب كلها ، فكان يهب هبات الملوك ، فيعطى الغنى ، ويرجع إلى داره وفراشه فيها الحصير ، وطعامه خبز الشعير .

وقال ابن مسعود : دخلتُ على رسول الله ؛ وقد نام على حصير ، وقد أثرُ في جنبه ، فقلتُ : يا رسول الله ، لو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً تَجْعَلُهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْحَصِيرِ ، يَقِيكَ مِنْهُ ! فقال : مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ مَا أَنَا وَالْدُّنْيَا إِلَّا كِرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا .

وعن قتادة بن النعمان قال : قال رسول الله : إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَظِلُّ أَحَدُكُمْ بِحِمِي سَقِيمَةِ الْمَاءِ .

تلك نظرة بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم إلى الحياة الحسية ، تلك النظرة السامية التي اخترقت حُجُب هذه الدنيا ، فلما كثر أتباعه ، وانتشر دينه ؛ فتحت القلوب إلى ما هو أوسع من البطن ، والفم ، والأنف ، وسمت النفس الإنسانية فوق تلك الحجب ، فتجلى لنا النور الإلهي ، واتسع الأفق ، وأضاءت الأرواح العلية هذا الوجود ، فشهد العالم دولة الصدر الأول للإسلام ، فيها المثل الكامل للزهد والقناعة ، والعدل ، والمساواة ، والمعروف ، وطيب العيش ، فيها مثل أبي بكر وعمر في أثواب مرقعة ، يحسدهما كسرى وقيصر .

وهل كان عمر في الثوب المرقع على الأرض أقل متاعاً بالحياة من المترفين الجبابرة ؟ كلا ، إنما هو نوع آخر من اللذات ، أبعد من الحيوانية ، وأدنى إلى الإنسانية ، ذلك هو متاع الروح التي فوّت إلى الله ، وإلى أسمى الحياة الوجدانية ، وذلك أبعد أثراً في النفس ، وأحسن عاقبة للأبدان ، وأحب إلى وجودنا البشري . تلك المدرسة الحمدية ، مدرسة القناعة والزهد ، أخرجت ولاية وحكاماً للشعوب ، يقنعون ب درهم في اليوم أجراً ، و يقيمون الولاية والملك على أحسن ما يرضى الله والناس .

يروى ابن هشام عن زيد بن أسلم : لما استعمل رسول الله عتّاب بن أسيد على مكة ، رَزَقَهُ كُلَّ يَوْمٍ دِرْهَمًا ، فقام وخطب الناس ، فقال : أيها الناس أجاع

اللهُ كَبِدَ من جَاعَ على درهمٍ ، فقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم ، فليست لي حاجة إلى أحد .

أترون خلال هذه الخطبة إلا رجلاً فرحاً برزقه ، قد ضمن العيش بدرهم ، ويريد أن يفرغ إلى ماهو فوق العيش ؟ هذه هي القناعة ، التي تلقاها الصحابة من المعلم الأكبر .

انظروا إلى محمد نفسه ، خرج مرة من المسجد ، فوجد أباً بكر وعمر ، فسألهما عن خروجهما ، فقالا : أخرجنا الجوع ، قال : وما أخرجني إلا الجوع ، فذهبوا إلى أبي الهيثم ، فأمر لهم بشعير ، وقام إلى شاة فذبحها ، واستعذب لهم ماء معلقاً عنده في نخلة ، ثم أتوا بالطعام ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : لَنُسْأَلَنَّ عن نَعِيمِ هَذَا اليومِ .

كان النبي معروفاً بفِرْط الحب لأولاده ، حتى إن فاطمة بنته كانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها ، وأجلسها مكانه ، ومع ذلك كانت تعيش عيشة الفقراء ، وتشكو من آلام الرحي ، وتُجَرَّح يدها أحياناً من حمل الماء ، فطلبت إليه يوماً خادماً من الأسرى ، فأبى .

وروى أنه قال لعليّ : كيف تطمعون في شيء من هذا ؛ وأهل الضَّعة على ما هم عليه من الفقر ؟ ودخل على فاطمة وفي يدها سِلْسِلَةٌ من ذهبٍ ، وهي تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا فاطمة ، أيسرك أن يقول الناس : ابنة رسول الله في يدها سِلْسِلَةٌ من نارٍ ؟ ثم خرج ولم يقعد فأرسلت فاطمة بالسِّلْسِلَةِ فَبَاعَتْهَا ، واشترتُ بثمنها عبداً ، فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك ، فقال : الحمد لله الذي نجَّى فاطمة من النار .

ذلكم هو الزهد الذي علمه بطل الأبطال لأهل بيته وصحبه والناس جميعاً ، وإن فاطمة ، وقد باعت السلسلة ، وأعتقت العبد ، قد تمتعت ولا ريب بلذة

وجدانية ، وطمأنينة نفسية ، أبعاد أثرا في تشييد بيت السعادة ، من تلك السلسلة من الذهب في عنقها ، تفخر بها على صاحباتها .

روى البخارى عن عائشة أنها قالت لعروة : يابنَ أختى ، إن كُنَّا لننظرُ إلى الهلالِ ثمَّ الهلالِ ، ثلاثة أهلةَ في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نارًا ، فقلت : يا خالة ، ما كان عيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله جيرانٌ من الأنصار كانت لهم منافع^(١) ، وكانوا يَمْنَحُون رسولَ الله من ألبانها فيسَقِمينا .

وقد ذكر مرة وهو في الصلاة : أن في بيته تبرًا ، خفف الصلاة ، وسارع إلى التبر ، ففرقه على الفقراء ، كراهة أن يبيت الذهب في بيته .

قال عقبة بن الحارث : صلى بنا رسول الله العصر فأسرع ، وأقبل يشقُّ الناس من سرعته ، ودخل إلى بيته ، ثم لم يكن بأوشك من أن خرج . فقال : ذكرت شيئًا من تبرٍ كان عندي ، فخشيت أن يحبسنى ، فقسمته . هذا الذى يقسم التبر بين الناس هو الذى تقول عائشة أيضًا عن حال أهله : ماشى آل محمد من خبز البر ثلاثًا ، حتى قضى لسبيله ، وما أكل آل محمد أكلتين في يومٍ واحدٍ إلا إحداهما تمر . ويقول أنس : قال رسول الله : لقد خفتُ في الله ما لم يخف أحد ، وأوذيتُ في الله ما لم يؤذ أحد ، ولقد أتى على ثلاثون ما بين يوم وليلة ، ومالى ولبلالٍ من الطعام إلا شئء يواريه إبط بلال^(٢) .

وها كم أمثلة من مآثور قوله في القناعة والزهد ، وما كان قوله إلا مطابقاً لعمله ، فما عرف عن بطل الأبطال حديث إلا كان صورة لنفسه الكريمة ، معبراً عما رضى لها من خلق ، وما هو عليه من فطرة .

(١) المنافع جمع منيحة ، وهى الشاة تعار لينتفع بها .

(٢) يريد شيئاً يسيراً يضعه حامله تحت جناحه فلا يظهر .

والذين يقرءون بإمعان سيرته الكريمة ، يرون مطابقة أقواله لأفعاله في كل أطوار الحياة مطابقة تامة ، فلم يكن يخشى الفقر أكثر مما يخشى الثروة والغنى ، وكان يكره الكثر ، ويقول : إنه لم يترك في بيته ثلاثة دنانير يضم إليها ديناراً آخر ، إلا لقضاء دين ، وكان يقول : اللهم اجعل رِزْقَ آلِ محمدٍ كفافاً ، وقيل قوتاً (أى لا يزيد على الحاجة) .

وعن أبي أسامة الأنصارى قال : ذكروا عند النبيّ الدنيا ، فقال : ألا تسمعون ، ألا تسمعون ، إن البَذَاذَةَ من الإيمان ، إن البَذَاذَةَ من الإيمان (أى التواضع في اللباس ، وترك الزينة) .

وقال عليّ : بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، ما عليه إلا بُرْدَةٌ مرقعة بفروٍ ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه مصعب من النعمة ، ثم قال : كيف بكم إذا غدا أحدكم في حُلَّةٍ ، وراح في أخرى ، ووضعت بين يديه صحيفة ، ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قالوا : يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نُسَكِّفِي المِثْلَةَ ، ونتفرغ للعبادة ، فقال : بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب إلى الناس صحبة الفقراء ، حتى تنصرف آمالهم عن التطلع إلى الترف والزينة . يقول عون بن عبد الله بن عتبة : كنتُ أَعْصِبُ الأغنياء ، فما كان أحدٌ أكثرهما مني ؛ كنتُ أرى دابةً خيراً من دابتي ، وثوباً خيراً من ثوبي ، فلما سمعتُ قولَ رسول الله : إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق ؛ فليُنْظَرْ إلى من هو أسفل منه ، فذلك أجدرُ ألا تَزْدُرُوا نعمةَ الله عليكم . قال : لما سمعت ذلك صحبت الفقراء ، فاسترحت .

لا بد أن يخطرَ لكم هنا هذا السؤال : ما الحدّ بين الغنى والفقر في نظر رسول الله

صلى الله عليه وسلم ونظر أصحابه ؟ وإنا محاولون أن نصوره لكم كما صورته كتب الحديث .
 قال صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . وروى عثمان عنه أنه قال : ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وحاف^(١) الخبز والماء . وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له : ألك زوجة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال : فإن لى خادماً ، قال : فأنت من الملوك .
 ولقد سأله أصحابه : ما الغنى الذى لا ينبغي معه المسألة ؟ قال : قدر ما يغديه ، أو يعيشه

لذلك كان رسول الله يكره من الناس السؤال ، ويقول : لو تعلمون ما فى المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئاً ؛ وكان يترفع بأنصاره عن ذل السؤال .
 أتى إليه رجل من الأنصار يسأله ، فقال : أما فى بيتك شيء ؟ قال : بلى ، جالس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقمب نشرب فيه الماء . فقال : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذها صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما الرجل ، وقال : اشتر بأحدهما طعاماً ، فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأنتى به ، فأتاه به ، فشد فيه رسول الله عوداً بيده ، وقال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوماً ، ففعل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشتري ببعضها ثوباً ،

(١) جلف الخبز : الغليظ اليابس ، يؤكل بغير إدام .

وبعضها طعاماً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة .

كان بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم مثال الرجولة ، يحب النظافة والطيب ، ويغض الحِيَلَاءَ والتظاهر ، وما يقصد به إلى الترف . قال عليّ : أخذ رسول الله حريراً فجعله في يمينه ، وذهباً فجعله في شماله ، فقال : إن هذين حرام على ذكور أمتي .

ورأى عمر مرة حُلَّةً من إستبرق تُباع ، فأتى بها النبي ، فقال : يا رسول الله ابتع هذه ، فتجمل بها للعيد والوفود ، فقال رسول الله : إنما هذه لباس من لاخلق له . كان سيد العرب ، ومالك الجزيرة يملأ بالأموال صحن المسجد ، فيقسمها على الناس إلى آخر درهم ، فإذا دخل إلى بيته نام على جلد محشو بليف ، قالت عائشة : كان فراشه من آدم حشوه ليف .

وتقول عائشة : « إنه كان لرسول الله حصير يحتجزه في الليل ، فيصلي فيه ، ويسطه في النهار ، فيجلس عليه » وكان في طعامه قانعاً زاهداً يقول : « حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقِيَّاتٌ يُقِمْنَ أَوْدَهُ ^(١) » .

يقول أنس خادمه : ما علمتُ النبي خبز له مرقق قط ، ولا أكل على خِوان قط .

وسئل سهيل بن سعد : هل أكل النبي النقي ^(٢) ؟ فقال : ما رأى النبي النقي منذ ابتعثه الله حتى قبضه .

ولم يقصد رسول الله بهذا الزهد إضاعة المال ، ولا تحريم ما أحل الله لعباده من الزينة والمتاع ، فقد عرف الزهد بهذا المعنى السامي في قوله : ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا

(١) الأود : الاعوجاج .

(٢) خبز الدقيق الخالص .

أُصِيبَتْ بِهَا، أَرْغَبَ مِنْكَ فِيهَا، لَوْ أَنَّهَا بَقِيَتْ لَكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» .

وكان يجب النظافة والطيب والهيئة الحسنة ، ويحرص عليها . قال عطاء ابن يسار : أتى رجل النبي نائر الرأس واللحية ، فأشار إليه كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ، ثم رجع فقال النبي : أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم نائر لرأس كأنه شيطان ؟ ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة ، فقال : أما كان هذا يجد ما يغسل ثوبه ؟ وجاءته هند بنت عتبة تريد أن تبايعه ، فقال : لا أبايعك حتى تغيرى كفيك ، كأنهما كفا سبع . يريد أن تصلح أظفارها ، وتغير كفها بالخناء .

وكان يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكريم ، جواد يحب الجواد ، فنظفوا أفئنتكم ، ولا تشبهوا باليهود .

فرسول الله في زهده وقناعته إنما كان يكره الخيلاء والإسراف والترف ، ويجب للمسلم أن يرضى بالكفاف ، وأن يكون جواداً عطراً نظيفاً .

كان بطل الأبطال في زهده وقناعته مثلاً كاملاً . صور لنا كيف يتأتى للرجل أن يعيش كريماً ، يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه ، فينفقها جميعاً ، وينام بعد ذلك على حصير يؤثر في جنبه ، فإذا أرادوا أن يتخذوا له وطاءً قال : ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها .

ذكر وهو في مرض موته أن في بيته سبعة دنانير ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، فانسوا لاشتغالهم بمرضه ، وأفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته ، فسأل عائشة ما فعلت بالسبعة الدنانير ؟ فأجابت إنها لا تزال عندها ، فطلبها ووضعها في كفه ، ثم قال : ما ظن محمد بربه لولقي الله وعنده هذه ؟ ثم تصدق بها على الفقراء ، وقد لقي الله في كساء ملبد ، وإزار غليظ ، هو لباسه الذي قضى فيه ، ولكنه ترك وراءه

نوراً يشع من جبين القناعة والزهد، يهدي البشر إلى الحياة الطيبة ، ويوجههم إلى ما هو أسمى من متاع الأبدان الزائلة ، إلى متاع الأرواح الخالدة . ولا يزال رسول الله في قناعاته وزهده قدوة الأبطال والناس جميعاً ، يتطلعون إلى منتهى قصده ، فلا يدركون منه إلا قليلاً .

٥ - تواضعه وتياسره

ثم أُنحِث إليكم في صفة بيّنة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، صفة كانت ولا تزال على مرّ الأجيال بادية واضحة في طبعه الكريم ، تلك الصفة هي : التياسر والتواضع ، فبهما كان محمد صورة صادقة للكرامة الحقّ للإنسان ، يؤتاها من صميم نفسه ، ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة .

كان محمد التياسر نفسه يتمثل في الرجل الكامل ، وينبعث من أعماق قلبه ، فيبدد ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك ، وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يُخدع به الناس من قول أو فعل . كان محمد قريباً هيناً سهلاً ، يلقي أبعد الناس وأقربهم ، وأحبابه وأعداءه وأهل بيته ، ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافراً .

فكانت أعماله تصدر طبيعية ، كل منها يدل على خلقه ، كما تدل الصورة على صاحبها .

ثم اسمعوا إلى عدى بن حاتم الطائي يروي قصته ، وقد قدم إليه من الشام ، بعد أن فتحت جيوش المسلمين بلاده ، وبعد أن فرّ إلى الروم هارباً

يقول ، وقد كان يظن أنه سيلقى ملكاً في المدينة : دخلتُ على محمد وهو في المسجد ، فسلمتُ عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم . فقام وانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بي إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته

فوقف طويلاً تكلمه في حاجتها ، قال : فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى
 إلى رسول الله حتى إذا دخل بي بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً ، ففذفها
 إلى ، فقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل
 أنت . فجلست عليها ، وجلس رسول الله على الأرض ، قال : قلت في نفسي :
 والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك رَكُوسِيَا (دين
 بين النصرانية والصابئية) . قال : قلت : بلى ، قال : أو لم تكن تسير في قومك
 بالرباع ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك .
 قال : قلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبي مرسل ، يعلم ما يُجهل ، ثم قال : لهلك
 يا عدى إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ماترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن
 المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ؛ ولهلك إنما يمنعك من دخول فيه
 ماترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من
 القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف ؛ ولهلك إنما يمنعك من دخول فيه
 أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور
 البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال : فأسلمت .

واقعد عاش عدى حتى رأى القادسية والقصور البابية مفتحة للعرب .
 هذه طبيعة محمد لاطلاء عليها ، يأتيه عدى وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى
 لجيوشه ، يأتيه مغلوباً فيجلسه على وسادة ، ويجلس هو على الأرض ، ويحدثه
 بلا كلفة عما كان ، وما يعتقده كائناً . ثم انظروا إليه وقد مات ابنه إبراهيم ،
 فكسفت الشمس ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فيقوم في
 المسجد يقول : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت
 أحدٍ ولا حياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وصلوا وتصدقوا » .

هذه هي النفس البريئة التي تعشق الحقَّ للحقَّ ، وتمتعل في تواضع عن استغلال وهم من الأوهام ، أو مصادفة من المصادفات ، بل تأبى السكوت على سخفٍ أو ضلالٍ ، ولو كان من شأنه أن ييهر العامة .

وَهَاكُمْ مَا يَرَوِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَمَّا وَقَعَ لَهُ ، قَالَ : كَانَ بِالْمَدِينَةِ يَهُودِيٌّ ، وَكَانَ يُسَلِّفُنِي فِي تَمَرِي إِلَى الْجَذَازِ ^(١) فَخَاسْتُ « أَيْ تَأَخَّرَ ثَمَرُهَا » عَامًا ، فَجَاءَنِي الْيَهُودِيُّ عِنْدَ الْجَذَازِ ، وَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا ، فَجَعَلْتُ أَسْتَنْظِرُهُ إِلَى قَابِلٍ ، فَيَأْتِي ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيَّ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : امْشُوا نَسْتَنْظِرْ لَجَابِرٍ مِنَ الْيَهُودِيِّ ، فَجَاءَنِي فِي نَحْلِي ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يُكَلِّمُ الْيَهُودِيَّ ، فَيَقُولُ : أَبَا الْقَاسِمِ ، لَا أَنْظِرُهُ ، فَقَامَ النَّبِيُّ ، فَطَافَ فِي النَّخْلِ ، ثُمَّ جَاءَهُ فَكَلَّمَهُ قَائِي ، فَقُمْتُ فَحِثْتُ بِقَلِيلٍ رُطْبٍ ، فَوَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ، فَأَكَلَ ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ عَرِيْشُكَ يَا جَابِرُ ؟ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : افْرِشْ لِي فِيهِ ، فَفَرَشْتُهُ ، فَدَخَلَ فَرَقَدَ ، ثُمَّ اسْتَيْقِظَ ، ثُمَّ جِئْتُهُ بِقَبْضَةِ أُخْرَى ، فَأَكَلَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَ فَكَلَّمَ الْيَهُودِيَّ ، فَأَبَى عَلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا جَابِرُ جُذِّ وَاقْضِ ، « أَيْ اقْطَعْ الثَّمَرِ ، وَاقْضِ دَيْنَكَ » . وَيَقُولُ جَابِرٌ : إِنَّ اللَّهَ بَارَكَ فِيهِ ، فَقَضَى الدَّيْنَ وَزَادَ .

والحكاية تصوّر لنا تياسره وتواضعه في سعيه بين اليهودي وجابر ، وأكله ونومه ، ولين جانبه ، فلم يزد بعد أن يئس من اليهودي على أن يأمر صاحبه بأداء ما عليه .

انظروا كذلك إليه كيف يستأذن على أحد أصحابه ، وكيف ينصرف ؟ يقول قيس بن سعدٍ : زارنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا ، فقال :

السلام عليكم ورحمة الله ، فردّ أبي ردّاً خفيّاً ، فقلت لأبي : ألا تأذنُ لرسولِ الله ؟ فقال : ذرّه حتى يُكثِرَ علينا من السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : السلامُ عليكم ورحمة الله ، ثم رجع ، فأتبعه سعدٌ ، فقال : يا رسولَ الله ، إني كنتُ أسمعُ تسليمتك وأردّ عليك ردّاً خفيّاً ، لتُكثِرَ علينا من السلام ، فانصرف معه النبي ، وأمر له سعدٌ بفسل فاغتسل ، ثم ناوله ملحفةً مصبوغةً بزغفرانٍ ، فاشتمل بها ، ثم رفع يديه ، وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد . فلما أراد الانصرافَ قَرَّبَ له سعد حماراً ، فقال سعدٌ : يا قيسُ ، اصحب رسولَ الله ، فصحبته ، فقال : اركبْ معي ، فأبيت ، فقال : إما أن تركب ، وإما أن تنصَرف ، فانصرفت .

هذه زيارة محمد سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة، تمرّ في غير حفل ، ولا ظهور ؛ يذهب إليه ماشياً ، ويعود على حمار ؛ يريد أن يردف عليه رفيقه . تلك السجية الطاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعاً ، وطاعته قرينة ، فإن يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء ، واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال في تاريخ الدعوة الإسلامية .

ولم تكن دعوته قيساً إلى الركوب معه على الحمار أمراً غريباً ، بل كانت هذه عادته ، يُردف على حماره وبغلته وناقته ، ويُعاقب^(١) مع رفاقه . قال ابن عباس : إن النبي لما قدم مكة استقبله أغنيمةُ بني عبد المطلب ، فحمل واحداً بين يديه ، وآخر خلفه . وقال معاذٌ : كنتُ ردّف رسول الله على حمارٍ يقال له عفير . وجاء إليه رجل ، وهو يمشي ، فقال : اركبْ وتأخرَ على حماره ، فقال محمدٌ : أنت أحقّ بصدرِ دابتك مني ، إلا أن تجعله لي ، فقال الرجل : فإني جعلته لك .

(١) المعاقبة : أن يركب واحداً مرة ، ويركب الثاني أخرى .

ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف في السير ، فيُزجى الضعيف (أى يسوقه ليلحق الرفاق) ويردف ، ويدعو لهم . ولم يكن أبغض إليه صلى الله عليه وسلم من الكبر والخيلاء ، فقد قال : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنْ الرَّجُلَ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ اللَّهُ حَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ : الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَصُ النَّاسِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمْ الَّذِينَ مَاتُوا ، إِنْ اللَّهُ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ (أى كبرها) إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ ، أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ

هذا الحديث ينم بمعناه وعبارته على مقدار غضب محمد إذا ذكر الكبر والتكبرون ، ولو كان للناس أن يفخروا بآبائهم لما كان في جزيرة العرب أحق بالفخر من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، ولكن محمداً لا يرى في المجتمع الذي أقامه إلا هيئة تتساوى فيها الحرف ، والمراتب ، والأعمال والأحساب ، والأنساب ، ولا تفاضل عنده إلا بالعمل الصالح يرفع صاحبه .

كان مرة في سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاماً ، فقسموا العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب ، فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه . ولما وقف عليه أعرابى يرتجف خشيةً ، زَجَرَهُ وذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد^(١) . وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له ، فقال : لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعْجَمُ يَعِظُمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَكَانَ يَرَى كَذَلِكَ فِي تَقْبِيلِ الْيَدِ تَشَبُّهًا بِالْأَعْجَمِ ، وَيَنْهَى عَنْهُ .

(١) القديد : لحم مملوح يجفف في الشمس .

وكان محمد يكره الإطراء والألقاب : انطلق إليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده ، قالوا : أنت سيدنا ، فقال السيدُ اللهُ ، قالوا : وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طَوْلاً ، فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجربنكم الشيطان . ويقول أبو بكر رضى الله عنه : أثنى رجلٌ على رجلٍ عند النبيِّ ، فقال : ويلك ! قطعت عُنُقَ صاحبك ، أى أهلكته بالإطراء والمدح والتعظيم ، فإنه يعجب بذلك فيهلك ، كأنه قطع عنقه . ويقول أبوهريرة : أمرنا الرسولُ أن نَحْشُو في أفواهِ المدّاحينَ الترابَ .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يكره كذلك الخيلاء والتفاصح والتأثير في الناس بالقول المزخرف ، ويقول : إنَّ من أحبكم إليَّ ، وأقربكم مني مجلساً يومَ القيامة ؛ أحسنكم أخلاقاً ، وإنَّ أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني يومَ القامة ؛ الثَّارُونَ والمتشدِّقون والمتفهيقون قالوا : يا رسولَ الله ، وما المُتَفَهِّقُونَ ؟ قال : المُتَكَبِّرُونَ . والثَّارُونَ هم الذين يُكثرون الكلامَ تكلفاً ، والمُتَشَدِّقُونَ هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تَفَاهُحاً وَتَعَاظِماً ، وكان يكره الخطيب يسلب بفصاحته ألباب الناس ، ويملك حواسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : من علَّم صرفَ الكلامِ لِيَسْتَبِي به قلوبُ الرجالِ ، لم يقبلِ الله منه يومَ القيامةَ صرفاً ولا عدلاً ، وكان يقول : هلك المُتَنَطِّعُونَ . ويكررها بغضاً منه في التعمق والتفاصح ، كان كل ذلك نفوراً بطبعه الميسر المتواضع عن التظاهر والرياء والتكلف .

كان في تياسره جم التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف ب كله إلى محدثه صغيراً أو كبيراً ، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا تصدق وضع الصدقة بيده في يد المسكين ، وإذا أقبل جلس حيث ينتهي المجلس بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعملهُ لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان يذهب إلى السوق ، ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يستكبر

عن عمل الأجير والفاعل سواء كان في بناء مسجد المدينة ، أو في الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعاً في ملبسه وسكنه ، يلبس كهامة من حوله ، ويسكن وقد واتته الدولة والسلطان - في صفٍّ من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ، ملبس بالطين ، ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر .

وكان يجيب دعوة الحرِّ والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ، ويخْصِف نعله بيده ، ويخدم نفسه ، ويعقل بعيره ، ويأكل كل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس .

كل هذا التياسر والتواضع الصادر من نفسه الطاهرة ، والذي هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيئته ولا محبته ، وقد قيل في وصفه : من رأه بدهاء هابه ، ومن عاشره أحبه . فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جمٍّ ، وحبٍّ ووقار كامل ، ولم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيراً ما بين لأصحابه كيف يتصرفون في حضرته ، وفي خطابه .

يقول السير ولیم مویر ، وهو من نقَّاد محمد الصريحين ، في وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته في معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع ، والشفقة ، والصبر ، والإيثار ، والجود ، صفات ملازمة لشخصه ، وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنًا ، ولا هدية مهما صغرت ، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه بإقباله وإن كان حقيراً .

وكان إذا لقي من يفرح بنجاح أصابه ، أمسك يده ، وشاركه في سروره ،

وكان مع المصاب والحزين شريكاً شديداً العطف ، حسن المؤاساة ، وكان في أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحة من حوله وهنأتهم .

ولسنا في تاريخ محمد بحاجة إلى أحد ؛ فإن مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله ، وضوح حياته وجلاءها من جميع نواحيها ، وإنما سقنا عبارة السيرموير هنا لشعورنا بأنها صادرة عن إعجاب صادق ؛ ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللائقة بها ، لكان اليوم حياً في قلوبنا ، كما كان حياً بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التي طبعها على الوجوه بعمله وقوله ، لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها طلاء ، ولا يحجبها رياء ، ولا ترى إلا على حالة واحدة في الليل والنهار ، وفي السر والعلانية ، وفي الشدة والرخاء ، وفي الضعف والقوة ، في السوق وهو في شبابه ، وفي الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك ، كان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها . هي النفس التي اتصلت بالسماء ، وعاشت على الأرض ، دانية إلى الناس ، محبة إليهم ، في كل أطوار حياته كان بطل الأبطال ، صلى الله عليه وسلم ، المثل الذي نحن اليوم أحوج مانكون إليه ، ذلك المثل الذي قام عليه النظام الاجتماعي الإسلامي ، والذي جعل الناس سواء ، في نطاق الأخوة الإسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أوجه ، أو حسب أو نسب ، وإنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، والناس من آدم ، وآدم من تراب .

٦ — تعبد ونسكه

آن لى أن أتحدّث إليكم فى نسكه وتعبده صلى الله عليه وسلم ، وتلك صفة بارزة فى طبعه الكريم ، فقد كان يجد فى العبادة قرّة عينه ، وطمأنينة نفسه . ولو أنه كان من الناسك الذين انقطعوا للرهبانية ، أو المتصوّفة الذين انصرفوا عن الدنيا ، لما كان فى نسكه وتعبده بدعاً ، وإنما الذى يلفت نظر الباحث فى حياة بطل الأبطال ، هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذى يبلغ أرقى مراتب التعبد ، وبين القيام على أمور الدنيا التى كان يعيش فيها بكده ، ويعول كثيراً من الأهل والفقراء ، ويناضل أمة بأكملها ، ويسوس دولة فتية فى وجه العالم ، يوفد إلى الملوك ، ويدعوهم ، ويستقبل الوفود ويكرمهم ، ويبعث السرايا ويقودها ، ويجادل من حوله من أهل الأديان ، وأهل السلطان ، ويهيئ للنصر ، ويحتاط للهزيمة ، ويبعث العمال ، ويجبى الأموال ، ويقسمها بنفسه ، ويقول : إن لم أعدل فمن يعدل ؟ ويشرع للناس دين الله ، فيفصل المجمل من الوحي ، ويوضح الغامض ، ويرسم الشئ ، فيخرج من الأصل فروعه ، ويرد ما لم يطلعه الله عليه إلى ما أطلعه الله عليه . وهو فى كل ذلك يؤدى العمل اليومى الذى ينوء به أبطال هذه الدنيا ، وبين هذه الهموم والمشاكل يتجلى محمد الناسك العابد بالليل والنهار ، أعظم انقطاعاً إلى الله ممن انقطعوا إليه فى رءوس الجبال .

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم مثلاً قائماً بنفسه فى تاريخ البشرية ، منقطع النظير . كان يقسم يومه جزءاً للعبادة ، وجزءاً للناس ، وجزءاً لأهله ، فإذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذى هو لأهله ، واحتفظ

بما هو لله ، وقد واظب على ذلك مواظبة عجيبة ، تستحق مزيد الإعجاب من أنصاره وخصومه على السواء .

فقد كان مثلاً من الجد الكامل ، والتوجه الخالص ، إذا انصرف للعبادة انصرف بجملته ، وإذا قام بعمل آخر لم يفتر عنه حتى يتمه ، وقد أجمع مؤرخوه من أهل الملل المختلفة على أنه كان يعطى العمل الذى يشغله كل حسه وكل قلبه ، وكان ذلك يتجلى فى علاقته بالناس ، فما حدثه أحد إلا التفت إليه بوجهه وجسمه ، وأصغى إليه تمام الإصغاء ، ولم يقطع الحديث حتى يكون التكلم هو الذى يقطعه . ذلك الجد الذى يلزم النفوس المؤمنة ، هو سرّ النجاح فى كل الأعمال سواءً كانت للدين أم الدنيا ، وفيه كان بطل الأبطال صورة صادقة منيرة لأصحابه وتلاميذه ، بل ذلك المثل من الجد فى كل شىء هو الذى أنجب ممن صحبه أكبر رجال الدولة ، وسواس الأمم ، فجعل من رعاة الإبل والغنم ، ومن صغار الزّراع والتجار ، خلفاء كسرى وقيصر ، يعلمونهما ما فاتهما من العدل والإحسان .

كان محمد بفطرته يحب النسك والعبادة ، ويمجد فيها قرة عينه ، فكان قبل الرسالة ينقطع شهراً فى غار حراء خارج مكة للتعبّد :

أَفَ النَّسْكَ وَالْعِبَادَةِ وَالْحَمْدَ وَطِفْلاً وَهَكَذَا النُّجَبَاءَ
وَإِذَا حَمَلَتِ الْهَدَايَةُ قَلْبًا نَشِطَتْ لِلْهَدَايَةِ الْأَعْضَاءُ

وقد اختلف الأصوليون والفقهاء فى صورة العبادة ، وطريقتها ، وعلى آية شريعة كان يتعبد ، وهذا الخلاف نفسه يلقى الشك فى تلك الأقوال والفروض ، والثابت تاريخياً هو أن عبادته كانت فكراً فى خالق الكون ، يدور حول الوجود ، والمشرف عليه ، فلم يُعلم عنه أنه كان يرمى سُنن العبادات فى الشرائع التى سبقتها ، فقد رفض الأديان كلها قبل أن يهتدى إلى الحقّ فى أمر الخالق ،

حتى في بعض ما لزمه من عبادة العرب كالحج ؛ فإنه لم يلتزم مذهب الحمّس ، الذي هو مذهب عشيرته ، بل وقف وأفاض من عرفة كما يقف ويفيض الناس ، وحرّم على نفسه كثيراً مما أحلت قريش في جاهليتها ، فتبع ما يقره العقل الراجح ، واستمر طالباً الهداية ، باحثاً عن الحق ، ناسكاً في الوصول إليه ؛ عبادته التفكير والتأمل ، حتى أتاه اليقين : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » ، ويقول القرآن ممتناً عليه : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » . فلما جاءه الهدى أخذ يصلى ، فيخرج إلى شعاب مكة ، ومعه على وهو صبيّ ، فيصليان مُستخفين ، حتى إذا أمسيا رجعا .

حلت الهداية قلب محمد ، فتعلق بالله ، وفنيت نفسه في حبه ، وإنا لنستطيع أن نقول : إنه صار معه في حركته ، وسكونه ، ويقظته ، ونومه ، وبلغ به الفناء في الذات العليّة أن صار يقف بين يدي خالقه حتى تتورّم قدماه . يقول المغيرة بن شعبه : إن النبيّ كان يقوم ليصلى حتى تتورّم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : أفلاً أكون عبداً شكوراً . ويقول ابن مسعود : صليت مع النبي ليلة ، فلم يزل قائماً حتى هممت بأمر سوء ، قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أقعد وأذر النبيّ . ويروى عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي قال له : أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحبّ الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ، ويفطر يوماً .

كان قيام الليل والتهجد فيه من عاداته طول حياته صلى الله عليه وسلم ، وكان له فيه نجوى ودعاء ، ما أدله على ضراسته وفنائه في حبّ الخالق وخشيته ! كان يقول : اللهم لك الحمد ، أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد ؛ أنت ملك

السموات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمدُ ؛ أنت الحق ، ووعدك الحق ،
ولقاؤك الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد
حق ، والساعة حق ؛ اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ،
وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ؛ فاغفر لي ما قدمتُ ،
وما أخرتُ ، وما أسررتُ ، وما أعلنتُ ؛ أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله
إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وهاكم القرآن يخاطبه في شأن التهجد :
« يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ
وَرَنِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا
وَأَقْوَمُ قِيلًا » ، فكان يفعل ما أمر به ، وفي ذلك يقول ابن رَوَاحَة من شعراء
الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم :

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه إذا انشَقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ
يبیتُ يجافى جنبه عن فراشه إذا استتمتْ بالمشرکین المضاجعُ
حلت الهداية قلب محمد ، فعلق بالله في كل شيء ، فهو ذا كره ، واثق به ،
مراقب له ، مطيع ، خائف ، محب ، خاشع آناء الليل وأطراف النهار ؛ فإذا جاءه
أمر يحبه قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ وإذا أتاه أمرٌ يكرهه قال :
الحمد لله على كل حال ؛ وإن قصد فعل شيء قال : اللهم خِر لي واختر لي ؛
وإن أراد سفرًا قال : اللهم بك أصولُ ، وبك أجولُ ؛ وإن أراد نومًا قال :
اللهم باسمك وضعتُ جنبي ، وباسمك أرفعهُ ؛ وإن استيقظ قال : الحمد لله الذي
أحياناً بعد أن أماننا وإليه النشورُ ؛ وإن لبس ثوباً جديداً قال : الحمد لله الذي
رزقني ما أتجمل به في حياتي ؛ وإن أكل قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ،

وجعلنا مسلمين ؛ وإن شرب قال : الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فرأنا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجابا بذنوبنا ؛ وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال : لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ؛ وإذا هب من نومه فى الليل قال : رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم .

تعلق قلب محمد بالله فهو معه فى كل عمل وحين ، وشُغِف بالعبادة والنسك ، فهو يقوم الليل ، ويصرف فيها جزءا من النهار ، ويجد فى الصلاة لذته وقرة عينه ، وينهى أصحابه أن يقلدوه فيما لا طاقة لهم به . تقول عائشة كان رسول الله يدعُ العمل وهو يحب أن يعمل به ، خشية أن يعمل الناس به ، فيفرض عليهم ، ويروى أنس أن النبي واصل : أى صام مواصلاً الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، يومين أو ثلاثة ، وكان ذلك فى آخر رمضان ، فواصل ناس معه ، فبلغه ذلك ، فقال : لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وصالاً يدع له المتعمقون « أى المبالغون » تعمقهم . إني لست مثلكم ، إني أظللُ يطعمنى ربي ويسقيني ، « أى يعيننى ويقوينى » ، وتقول عائشة : صلى رسول الله فى المسجد ، فصلّى بصلاته ناس كثير ، ثم صلى من القابلة ، فكثروا ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة ، فلم يخرج إليهم ، فلما أصبح قال : قد رأيت صنيعكم ، فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تُفرض عليكم ، ويقول أنس : كان رسول الله يقوم فى رمضان ، فحُتت فقامت إلى جنبه ، فجاء رجل آخر ، فقام أيضاً ، حتى كئنا رهطاً ، فلما أحس أننا خلفه ، جعل يتجوّز فى صلاته « أى يسرع » ، ثم دخل رحله فصلّى صلاة لا يصلحها عندنا ، فقلت له حين أصبحت : أفطنت لنا الليلة ؟ قال : نعم ، ذلك الذى حملنى على ما صنعت .

لا شك أن نفس محمد المتصلة بالله ، تستطيع ما لا يستطيع الناس ، فهو يود أن ينفرد بما فوق الطاقة ، فإذا نشط أصحابه لمتابعته ، خشى عليهم التعمق والغلو ، وهو الناسك الذى بلغ فى تعبه مقاماً لا يدانى ، وهو الرسول الذى جاء بالحنيفية

الميسرة؛ تلامس حقائق الحياة، فخلق به أن يغضب إذ يرى الناس يهيمون بترك الدنيا والافتقار للعبادة، والله تعالى يقول: «وَأُتْبِعْ فِيهَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» .

رأى أحد أصحابه في سفر مغارة، بجانبها ماء وخضرة، فمالت نفسه للعزلة بهما والتعبد، فغضب، وذكر له أنه ما جاء باليهودية، ولا النصرانية، وإنما جاءهم بدين إبراهيم ميسراً سهلاً. وأراد بعض الصحابة، ميلاً بفطرته أو تأثراً بالرهانية، أن ينقطع للعبادة، فغضب غضباً شديداً، ومنعه؛ وأراد آخر أن يمتنع عن أكل اللحم تنشيطاً وتعبدًا، فردّه. ويقول أنس: كنا مع النبي في سفر، فمنا الصائم، ومنا المفطر، فنزل منزلاً في يوم حارّ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقى الشمس بيده، فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال صلى الله عليه وسلم: ذهب المفطرون اليوم بالأجر.

وقد نفذت أوامره بالاعتدال والقصد في كل شيء إلى قلوب أصحابه، وأدركوا مقصد أستاذهم الأعظم، فأخذ بها بعضهم بعضاً، حتى إن سلمان الفارسي دخل بيت أبي الدرداء، وكانا من أخى بينهم النبي في المدينة، فوجد امرأته متبدلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال: كُلْ، فإني صائم. قال: ما أنا بأكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، قال: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلياً، فقال سلمان: إن لرَبِّكَ عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حقٍ حقه، فأثنى النبي، فذكر ذلك له، فقال النبي: صدق سلمان.

وعن أنس بن مالك قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي، يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي؟ قد غفر الله

له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلى الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله إليهم فقال : أتمّ الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنّي أصوم وأفطر ، وأصلي وأزقّد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

ذلك هو التوسط الذي أراده محمد ، وكان فيه أعجب رجال التاريخ ، فهو برغم خشيته أن يميل الناس عن القصد ، وأن يفرطوا ويكلفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، كان المثل الأعلى في التعبد والنسك ، كما كان في الرجولة ، وتصريف شئون الدنيا ، والقيام عليها .

والآن أعود إلى نوع من تعبده ، ما أحلاه لفظاً ! وأسماه معنى ! ذلك هو الدعاء ، والدعاء كما قال صلى الله عليه وسلم : هو العبادة ، « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

انظروا إلى هذا الدعاء وما فيه من الضراعة والتسليم الكامل : « إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » اللهم اهْدني لأحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق ، لا يهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ . وَفَنِي سَيِّئِ الْأَعْمَالِ ، وَسَيِّئِ الْأَخْلَاقِ ، لَا يَبْقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ؛ اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسَلْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ؛ أَنْتَ رَبِّي ، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَلَحْمِي وَدَمِي وَعَظْمِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ ، وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ ، وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدَمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ .

ذلكم هو محمد صلى الله عليه وسلم وصل في نسكه وعبادته إلى أرق مراتب

الإخلاص لله ، والتفانى فى طاعته وحبه ، والمثول الدائم فى حضرته ، ووصل فى شئون الدنيا إلى إقامة دولة من أنقاض الممجية ، وإلى إبراء المجتمع من علل الاضطراب والفساد ، ففى شخصه التقت أغراض الحياة جميعاً على أكمل وجوها .

تلك الناحية من صفات بطل الأبطال يَحْنِي لها الناس جميعاً رؤوسهم ، وإذا رفع إليها أبطال العالم أبصارهم ، غَضُّوا الطَّرْفَ أمام الإعجاز المحمدى ، فما كان رجل ممن ملأ السمع والبصر من رجال التاريخ ليقوى على حمل هذا العبء الروحانى ، من العبادة فى الليل والنهار ، وتلقى أعمال الدنيا فى كل يوم ، على أنشط ما يكون ، وأصلح ما يكون لخدمة نفسه وقومه ، وكفاح أعدائه ، وإقامة الدولة الخالدة ، التى تركها بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم فى نشأتها وصولتها .

٧ - عفوه وصفحه

حديثنا الآن فى عفوه وصفحه صلى الله عليه وسلم عن أسرفوا فى إيذائه . وهو الخلق الكريم الذى أدبه به القرآن ، قال تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، ويّين الوحي معناه بقوله : « أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ، فالعفو عند المقدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس ، يتجلى فيه سمو المقصد ، وبعد الغاية ، والترفّع عن الشهوات ، وتبدو البطولة فى أروع صورها . . . ولن تجد فى تاريخ الأبطال ، بل تاريخ البشر كلهم مثل محمد ظافراً ، ناجحاً ، مؤيداً ، يعطى من حرمة ، ويعفو عن ظلمه .

كانت مكة والطائف مركزى العداوة الشديدة ، تتنافسان فى الوفاء للآل-

والعزري ، فلم يكن شرّاً على محمد من قريش ، ولا أرغب في الشرك من ثقيف ، وبرز في القرينين رجال مثل أبي جهل بن هشام ، وعكرمة ابنه ، وأمّية بن خلف ، وصفوان ابنه ، والعاص بن وائل السهمي ، والوليد ابن المغيرة ، وأبي سفيان ابن حرب ، وبنو عمرو بن عمير الثلاثة ، وأبي مسعود الثقفي ، ومالك بن عوف ، وأضرابهم ، ممن اتخذوا إيذاء صلى الله عليه وسلم والسخرية به وقتاله وهجوه متعة بها يلتذون ، ومفخرة بها يفاخرون .

وينقسم ذلك الأذى واضطهاد في رأيي إلى أربعة أطوار ، ويتبدى الطور الأول بإيذائه ، والتصغير من شأنه ، وقت أن كان مثل أبي لهب يقول له ؛ وهو يُنذِر الناس فوق الصفا : تَبّاً لَكَ ! أَلِهَذَا دَعَوْنَنَا ؟ والطور الثاني يتبدى بصحيفة المقاطعة ، وهي ميثاق عُلق بالكعبة ، وتعاهد فيه المشركون على مقاطعة بني هاشم ، لخاتمهم لابنهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فكاد يهلك ذلك البيت جوعاً ؛ وهو مقطوع في شعب بني هاشم . كان هذا الطور شديداً ، فإن الميثاق المقدس حرّم على الناس أن يتزاوجوا مع آل محمد ، أو يبيعوهم ، أو يشتروا منهم ، أو تكون لهم بهم صلة ما . ويتبدى الطور الثالث بوفاة أبي طالب عمه وحاميه ، وخديجة زوجته ومؤاسيته ، حين نثر التراب على رأسه ، وضاعت عليه الدنيا ؛ ولولا الإيمان والنبوة الصادقة لانتهى به الأمر إلى الانتحار ، أو أن يهيم على وجهه في الأرض .

في ذلك الطور خرج إلى الطائف وحده يلتمس حماية ثقيف ، والامتناع بهم من قومه ، فردّوه أشنع ردّ ، وسخر به زعماؤها الثلاثة من بني عمرو بن عمير ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : والله لا أكلمك أبداً ، لأن كنت رسولا كما تقول لأنت أخطر من أن أردّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلمك ، فسألهم محمد أن يكتبوا عليه ، وقال لهم :

إذ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَارْجِعُوا إِلَى مَكَّةَ ، وَكَانَ يَخْشَى سَوَاءَ الْمُنْقَلَبِ إِلَى مَكَّةَ ، وَالشَّمَاتَةِ وَالْفُلُوفِ إِيْذَانَهُ ، فَأَبَوْا حَتَّى هَذِهِ عَلَيْهِ ، وَأَغْرَوْا بِهِ سَفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسْجُونَهُ ، وَيَصِيحُونَ بِهِ ، حَتَّى أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَلَدِ ، تَتَبَعَهُ الصَّبِيَّةُ وَالسُّوقَةُ يَصِيحُونَ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ ، وَيَعْبَثُونَ بِهِ ، وَيَقْدِفُونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، حَتَّى أَدَمَوْا قَدَمِيهِ ، وَكَلَّمَا جَلَسَ أَقَامُوهُ ، وَأَجْبَرُوهُ عَلَى الْمَشْيِ ، فَلَجَأَ إِلَى حَائِطٍ ^(١) لَعْتَبَةِ بْنِ رَبِيعَةَ ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَغْضَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي ؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّهْنِي ؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَى غَضَبٍ فَلَا أَبَالِي ، وَلَكِنْ عَافَيْتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مَنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » . فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا فِي حِمَاةِ مُطْعَمِ بْنِ عَدَى ؛ ثُمَّ اخْتَتَمَتْ مَكَّةَ هَذَا الطُّورَ مِنْ أَطْوَارِ الْإِيْذَاءِ بِالْعَزْمِ عَلَى قَتْلِهِ ، وَتَفْرِيقِ دَمِهِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ ، حَتَّى يَعْجِزَ عَنْ طَلْبِهِ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ . فَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَابْتَدَأَ بِذَلِكَ الطُّورَ الرَّابِعَ . وَحَدِيثَ هَجْرَتِهِ إِلَيْهَا ، وَمَا لَقِيَ فِي طَرِيقِهِ مَشْهُورٌ .

انظُرُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَعَامِلَتِهِ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، وَرُؤُسَاءِ الْفِتْنَةِ ، وَزَعَمَاءِ الشَّرِّ ، الَّذِينَ أَسْرَفُوا فِي إِيْذَانِهِ وَاضْطِهَادِهِ ، لِتَتَجَلَّى لَكُمْ نَفْسُهُ الْكَرِيمَةُ فِي مِرَاةِ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ الْجَمِيلِ . انظُرُوا إِلَيْهِ فَاتِحًا فِي جَيْشٍ لَمْ تَرْ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ مِثْلَهُ يَكْتَسِحُ مَكَّةَ ، وَتَطْوُهَا خَيْلُهُ ، وَيَمُرُّ إِلَى حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ ، فَيَقْعُ بَيْنَ يَدَيْهِ سِتَّةَ آلَافٍ مِنْ أُسْرَى هَوَازِنَ وَثَقِيفَ ، وَيَفِرُّ مِنْ بَقِيٍّ مِنَ السَّادَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ ، وَيَالِيلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَمِيرٍ . انظُرُوا إِلَيْهِ وَالْبِلَادَ فِي رَحْمَتِهِ يَشْمَلُهَا عَفْوُهُ ، وَالسَّادَةَ

(١) الْحَائِطُ : الْبُسْتَانُ .

والزعماء الذين عَتَوْا في الأرض يُجَزَوْنَ بالبرِّ والإحسان ، وأبطال العالم لا تعرف لأمثالهم غير قطع الرؤوس .

هذا محمد في ذِرْوَةِ المروة لا يداني ، وقبل أن يصل الجيش الفاتح إلى مكة خرج أبو سفيان في ثلاثة نفر مستطاعاً ، فلم أن لاطاقة له ولقومه بقاء محمد ، فأردفه العباس على بغلة النبي التي كان يركبها ، ودخل به المعسكر ليلاً ، يطلب الأمان له ولمكة ، فكان كلما مرّ بنار من نار المسلمين قالوا : هذا عم النبي على بغلته ، حتى مرّ بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة . قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم سارع إلى رسول الله يقول : دعني أضرب عنقه ، فقد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، ولكن رسول الله أمر أن يبيت أبو سفيان في رحل العباس . فلما أصبح جرى به ، فأسلم وعفا عنه ، فقال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً ، فقال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وعاد أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ، والجيش يزحف إليها ، وهو يقول : والله ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة . فلما جاء قومه صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقالوا : قاتلك الله ! وما تغني عنا دارك ؟ فقامت هند بنت عتبة زوجه التي لاكت كبد حمزة يوم أحد ، فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوه ، فُبِحَّ من طليعة قوم ! فقال أبو سفيان : ويلكم ! لا تغرّكن هذه عن أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، من دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

أى مثل في العفو الكريم أعظم من هذا ؟ أبو سفيان الذي فعل الأفاعيل ، والذي أدمى كبد الرسول في أحد ، والذي زلزل بحصاره المسلمين في الخندق ،

أبو سفيان العاق من ولد عبد مناف ، الذى ناصر مخزوماً وسهماً على محمد وبنى هاشم ، يعفو عنه محمد ، ثم يعطيه مع العفو ما يفخر به ، وقد كانت هبة الحياة كل الرجاء ، فإذا الحياة والجاه بعض عطايا محمد للمقهورين من أعدائه .

دخل رسول الله مكة ، ولكن عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، ومن جمعو من الناس ، أبوا إلا قتلاً ، فهزموا وفرّوا ، ثم استأمنوا فأمنوا ، بل عُفِيَ عنهم ، بل أُعْطُوا من غنائم هوازن ، تأليفاً لقلوبهم .

وانظروا إلى مثل لن تجدوا له مثيلاً فى تاريخ البشرية ، هذا صفوان بن أمية العدو ابن العدو يفرّ إلى جدّة ، ليجرّ إلى اليمن ، فيأتى عمير بن وهب لرسول الله ، فيقول : يا نبيّ الله ، إن صفوان ابن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ، ليقذف نفسه فى البحر ، فأمنه ، قال : هو آمن ، قال : يا رسول الله ، فأعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه الرسول عمامته التى دخل فيها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ؛ وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ، فذاك أبى وأمى ! الله الله فى نفسك أن تهلكها ! فهذا أمان رسول الله قد جئت بك به ، قال : إني أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك قد أمنتني ، قال : صدق ، قال : فاجعلني فيه بالخيار شهرين ، قال : أنت بالخيار أربعة أشهر . هذا العدو ابن العدو صفوان ابن أمية لا يلتقى من برّ رسول الله أن يعفو عنه فحسب ، بل يبعث عمامته التى فتح بها مكة تطميناً للهاشم على وجهه إلى البحر ، ثم إذا ما طلب منه أن يتركه ليختار الإسلام أو الشرك شهرين ، قال : بل أربعة ، كي لا يقهره ولا يذله ، فهل فى تاريخ البشر مثال من العفو عند المقدرة أبرّ وأكرم من هذا الذى فعله بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وهذا رجل آخر جاءه قُبَيْلُ الفتح ، وكان عاقاً مسرفاً في هجوه وإيذائه للرسول ، هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وطلب الإذن عليه ، فقال : لا حاجة لى به وقد هتك عرضى ، وكان مع أبى سفيان بُنَيُّ له ، فقال : والله ليأذن لى ، أو لَأَخْذَنَّ بيد بُنَيِّ هذا ، ثم لَنَذْهَبَنَّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله رَقَّ له ، فدخل عليه ، وعفا عنه ، فقال :

لعمرك إني يوم أحمل رايةً لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ
لكالمُذَلِّجِ الحيرانِ أَظْلَمَ ليلُهُ فهذا أوانى حين أهدى واهتدى

وفى مكة وهو طائف بالبيت ، أراد فُضالة بن عَمِير أن يقتله ، فلما دنا منه قال : أَفُضالة ؟ قال : نعم ، فُضالة يارسول الله ، قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله عزّ وجلّ ، فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أَسْتَغْفِرُ الله ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، فكان فُضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما مِنْ خلق الله شيء أحبُّ إلىّ منه .

ثم هاكم مثلاً من عفوه عن رجل أبكاه ، وقهر المسلمين ، وحزّهم ، وهو عبد حبشىّ يقال له : وَحْشِيّ ، ذلك هو قاتل حمزة ، يقول وحشىّ : خرجت حتى ملت إلى رسول الله بعد فتح مكة والطائف ، فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أَتَشْهَدُ بشهادة الحقّ ، فلما رآنى قال : أوحشىّ ؟ قلت : نعم ، يارسول الله ، قال : اقعد فحدثنى : كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته ، فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غيَّب عني وجهك ، فلا أَرَيْتَكَ ، قال : فكنت أنكب رسول الله حيث كان ، لئلا يرانى ، حتى قبضه الله .

ذلكم هو ضبط النفس والعفو فى أحسن صوره ، رجل لا يستطيع رسول الله أن ينظر إلى وجهه ؛ وهو قاتل عمه ، وهو عبد لا أصل له ولا عشيرة ، يعفو عنه ، وأحب شيء إلى المسلمين أن يروا دمه كما رأوا أحشاء حمزة الذى طعنه بمرته .

ولما اطمأن الناس بعد الفتح قام رسول الله على باب الكعبة ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سِدانة البيت وسقاية الحاج . . . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : « يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ، ثم قال : يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قولوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : أذهبوا فأنتم الطلقاء ، ثم جلس رسول الله ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، أجمع لنا الحِجَابَةَ مع السَّقَايَةِ (وكانت الحِجَابَةُ في غير بني هاشم) فقال رسول الله : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برّ ووفاء .

وها هي ذى ثقيف كلها بين يديه ووفدها في المدينة وقد أكلتها العرب ، وهانت على الناس ، فماذا فعل بها ، وفي وفدها رجل مثل ياليل بن عمرو بن عُمَيْر الذى طرده من الطائف ؟ أما مالك بن عوف فذلك من سبق إليه عفوه ، فردّ إليه ماله وأولاده ، ووهب له مائة ناقة ؛ وأما هؤلاء فقد رجعوا إلى أهلهم بغير شغل وأمان كامل ، ولولا ضيق المقام لسمعتهم قصة هوازن ، وكيف ردّ الرسول سبيها ، واشتره ديناً عليه لأصحابه ، ليعطيه أعدائه الذين كادوا يقضون على الإسلام يوم حُنين ، ولسمعتهم من هذه الأمثلة آيات في كل قبيلة وكل بلد ، مما تنقضى الأيام ويبقى فيها رسول الله المثل الأعلى ، والقُدوة الحسنة للناس جميعاً .

٨ - رحمته وبرّه

في تاريخ العرب وتاريخ العالم ، رجال لا تزال ذكراهم مُدَوِّية في آذان البشر ، فيهم من الصفات ما عبّد لهم طريق النجاح ، أولئك هم الأبطال . وقد تحدثنا عن بعض صفات بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، فأوضحنا كيف كان فيها جميعاً المثل الأعلى ، والآن سنتناول الحديث عن رحمته وبرّه ، الذي لا يدانيه فيه أحد ، وهو صورة لنفسه الكريمة ، في أيام فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، فقد كان البرّ إمامه ، والرحمة محيطة به ، وهو الذي يقول : « إن البرّ يَهْدِي إلى الجنة . أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، لا يرحم الله من لا يرحم الناس ، الراحمون يرحمهم الرحمن ، لا تُنْزَعِ الرَّحْمَةُ إِلَّا مَنْ شَقِيَ » ، وقد وصفه القرآن بهذه الصفة قال تعالى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

كانت رحمته تسع الناس جميعاً ، وكان برّه يصل إلى المؤمنين والمشركين ، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس إلى قلبه الكبير ، وعطفه الشامل ، وبلغ حبه للفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حياً وميتاً ، روت عائشة أنه كان يقول : « اللهم أَحْيِنِي مَسْكِيناً ، وَأَمِتْنِي مَسْكِيناً ، واحشرنى في زمرة المساكين ، فقالت عائشة : لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : إِنْهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفاً ، يَا عَائِشَةُ لَا تُرَدِّى الْمَسْكِينِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، يَا عَائِشَةُ ، أَحْبِبِ الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ ، يَقْرَبُكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

كانت حياته موصولة بالفقراء ، وكان كلّ ما في بيته ويده لهم ، وبلغ من عطفه عليهم أن مرّ رجل عليه ، فقال لرجل عنده : ما رأيك في هذا ؟ فقال :

رجل من أشرف الناس ، هذا والله حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يَشْفَعَ ؛ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ؛ ثُمَّ مَرَّ آخِرَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ : مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ إِلَّا يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ إِلَّا يُشْفَعَ ، وَإِنْ قَالَ إِلَّا يُسْمَعُ لِقَوْلِهِ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا خَيْرٌ مِنْ مَلَأِ الْأَرْضَ مِثْلَ هَذَا .

لقد عمل محمد بما آتاه الله ، وما أودع فطرته من الرحمة ، على رفع شأن الفقير وإكرامه ، والأخذ بيد الضعيف ، وأرسل برّه في هذه الطبقة ، حتى قلب نظام المجتمع الذي ظهر فيه في سنين قليلة ، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد ؛ كان يقول صلى الله عليه وسلم : أَبْغُونِي ضِعْفًا كَمْ ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتَنْصَرُونَ بَضْعًا كَمْ ، وَكَانَ يَسِرُّهُ أَنْ يَجْتَمِعُوا إِلَيْهِ ، وَقَدْ آثَرَ بِالْحَدِيثِ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْضَ الْأَغْنِيَاءِ الْأَقْوِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنَ بِمَعَاتِبَتِهِ ، فَقَالَ : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، أَمْ مِمَّنِ اسْتَغْنَى فَإِنَّتَ لَهُ تَصَدَّى . . . الخ ، وَلَطَالَمَا سَخِرَتْ قَرِيشٌ مِنْهُ لِحِفَاوَتِهِ بِالْمَسَاكِينِ ، وَذَهَابِهِ بِهِمْ إِلَى الْحَرَمِ ، فَقَالَتْ : « أَهْوََاءٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ » ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِالْمَسَاكِينِ رِعْوًا رَحِيمًا . يقول عبد الله بن عمرو ابن العاص : دخل النبي المسجد ، فجلس إلى الفقراء ، وبشرهم بالجنة ، وبدا على وجوههم البشّر ، فحزنت ، لأنني لم أكن منهم . ورأى سعد بن أبي وقاص يتعالى على المساكين ، فذكر له أن ما ينال من الخير والنصر ، إنما هو أثر هؤلاء الفقراء ، وأنه مدين للمساكين ، وقد تحقق ذلك واضحاً جلياً حينما قاد سعد هؤلاء الفقراء المستضعفين إلى القادسية ، فهزم رُستَمَ ، ووطئ دولة الأكاسرة ، التي كان العرب بعض رعاياها .

كانت رحمته وبرّه بالمساكين تمتدّ إلى ما بعد الموت . جاء في صحيح البخارى
« أن النبيّ ذكر ذات يوم رجلاً أسود ، فقال : ما فعل ذلك الإنسان ؟ قالوا :
مات يا رسول الله ، قال : أفلا آذنتُمونى ؟ فقالوا : إنه كان كذا وكذا قصته ،
فخفروا من شأنه ، قال : فدلوني على قبره ، فأتى قبره ، فصلى عليه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يجاهد لتحرير العبيد ، ولرفع قيمتهم ، فلم يدخر مالاً ،
ولا سلطاناً ، ولا دعوةً فى سبيلهم ، وكانت نفسه تفيض بالرحمة عليهم ، والبرّ
بهم ، وأظهر مثل ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة ، الذى خيّر بين سيّد محمد
ووالده ، فاختار محمداً فى الوقت الذى كان لاحول له ولا قوة ، بل كان موضع أذى
قريش وسخريتها ، وهو الذى جعل معتوقه زيدا القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار
حين وجههم لغزو الروم ، فاستشهد فى وقعة مؤتة ، ولما استأنف النبيّ غزو الروم
بعد الفتح أمر شابا ابن رقيق ، هو أسامة بن زيد ، وهو حدّث فى العشرين ،
ومشى أكابر الصحابة وأشرف قريش والنبيّ فى موكبه .

أرايتم إذن كيف رفع برحمته وبرّه شأن الأرقاء المستعبدين ؟ وكان يقول
صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة سيّئُ الملكة ، ويقول : حُسْنُ الملكة يُمنّ ،
وسوءُ الملكة شؤمٌ » .

وكان باراً بالخدم والعمال ، روى أبو هريرة أن النبيّ قال : « إذا أتى أحدكم
خادمه بطعامه ، فإن لم يجلس معه فليناولهُ لقمةً أو لقمتين » ! وقال معاوية
ابن سويد : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ليس لنا خادم إلا واحدة ، فلطمها
أحدنا ، فبلغ ذلك رسول الله ، فقال : اعتقوها ، فقيل : ليس لهم خادم غيرها ،
قال : فليستخدموها ، فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها . وعن أبى مسعود قال :
ضربت غلاماً لى بالسوط ، فسمعت صوتاً من خلفي ، فإذا برسول الله يقول : اعلم

يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . وبلغ من رحمة محمد أنه كان لا يطيق أحداً يقول : عبدى أو أمتى ، فأمر المسلمين أن يكفؤا عن ذلك ، وأن يقولوا : فتاى وفتاتى ، وقد كان لهذه التربية أحسن الأثر فى تحرير الأرقاء ، ونشر المساواة ، وتغليب روح الأخوة على ما كان من العصبية ، والغرور ، والتفاخر .

يقول المَعْرُور بن سُويد : رأيت أبا ذرٍّ وعليه حُلَّةٌ ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله يقول : هم إخوانكم ، جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه . وقال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما قال لى أفٍ قطُّ ، وكان صلى الله عليه وسلم يخالط المساكين والخدم والعبيد ، ويحادثهم ، ويحجب دعوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويمشى فى جنازتهم ، ويصلى عليهم ، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيباً فى بيت المال لتحرير الأرقاء ، وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العبد بعد تحريره شيئاً يعينه على الكسب .

لم يكن رسول الله ليقصر رحمته وبرّه ، الذى هو صورة صادقة لنفسه الكريمة ، على الناطقين من بنى الإنسان ، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره ، وحفزته لكفاح موفق فى سبيل الرفق بالحيوان ، فكم كان للعرب من عادات مرذولة أنكرها وأزالها . كانوا يقتطعون من حيواناتهم ؛ وهى حيّة فيشون ، ويطعمون ، فخرم ذلك ، ولا يزال إلى اليوم بعض الطوائف فى الصحراء الكبرى برغم إسلامهم يعملون شيئاً من هذا ، فهم إذا خرجوا للغزو ، وبعدت عليهم الشقة ، فصدوا البعير ، فأخذوا من دمه ، وطبخوه وأكلوه ، أو شقوا عن سنامه ، فاقطعوا من الدهن ، ثم خاطوا السنام ، وأكلوا الدهن . وكان وشم الحيوان ،

ولا يزال ضرورة لإثبات الملكية في البداية ، فنهى عن ذلك الأذى ، وخففه باختيار أقل الأثر في أقل الأعضاء إحساساً . وكان العرب يتخذون من دوابهم أهدافاً للرماية ، فنهى عن ذلك ، وعن أن يقطعوا ذيول الخيل . ومرّ مرّة بناقة مربوطة جائعة ، فحلّ وثاقها وأطلقها . وأوصى الناس أن يخشوا الله في البهائم ؛ ومن الأمثلة التي ضربها صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل فيها ، فشرب ثم خرج وإذا كلبٌ يَلْمُثُ ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثله الذي كان بلغ منى ، فنزل البئر ، فملاً خُفَّهُ ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له ، فغفر له ، فقالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً . قال : في كل كبد رطبة أجر . وقال أيضاً : دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض .

تلك الأمثال يضربها محمد لقوم ما كانوا يظنون في الرفق بالحيوان أجراً ، وقد كان لها أكبر الأثر من الرحمة والرفق في نفوس المسلمين ، ومن تأدب بأدبهم في الشرق والغرب ، وكان من عادات الجاهلية أن يتخذوا ظهور دوابهم منابر ، فنهى عن ذلك ، وقال : إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجاتكم .

وهذه رحمته يفيض بها قلبه الكبير على عصفور صغير . قال عبد الرحمن ابن عبد الله : كنا مع رسول الله في سفر ، فرأينا حمرةً ، [طائر في شكل العصفور] معها فرخان لها ، فأخذناها ، فجاءت الحمرة تعرّش [أى ترفرف] ، فلما جاء الرسول قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردّوها ولدها إليها . وقال صلى الله عليه وسلم في قسوة عائشة على بغير ركبته : « من يُحرّم الرفق يُحرّم الخير كله » .

هذه الرحمة بالإنسان والحيوان كانت تظهر أنساً وبشراً في وجهه إذا رأى الطفل ، أو لقي الصبي ، فقد كان يأخذ أطفال أصحابه بين ذراعيه ، ويترقب لذلك ، وكان إذا مرَّ بالصَّبِيَّة يُقرِّهُمُ السلام ، وحدث جابر بن سَمُرَةَ : أن النبي رأى صَبِيَّةً يتسابقون ، فجرى معهم ، وكان يلقي الصبي في الطريق ، فيركبه ناقته ليسرَّه ، وكان أبرَّ والد بولده ، يقول أنس : إنه لا يعلم رجلاً أبرَّ بأهله وولده من محمد ، وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ، ثم يضمهما ، ثم يقول : اللهم ارحمهما فإني أرحمهما وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسول الله وهو يقبل أولاده وأولاد أصحابه ، فقال الأقرع بن حابس مرة وقد رآه يقبل الحسين : إن لى عشرة أولاد ما قبَّلت أحداً منهم قط ، واعترض آخرون بمثل هذا المعنى على الشفقة غير المألوفة ، وكان محمد ينكر عليهم أن يكونوا غلاظ الأكباد ، قساة القلوب . قالت عائشة : جاء أعرابيٌّ إلى النبي ، فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما تقبلهم ، فقال النبي : أو أمْلِكُ لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ .

وهذه الرحمة في نفس محمد كما كانت تبدو بشراً وأنساً ، كانت تفيض دمعاً وأسى ، وكان جفاة القوم يستعظمون هذه عليه ، فكان يبين لهم أنها رحمة ، وأن لا عيب فيها .

مات لإحدى بناته ولد ، فلما رفع إليه وكانت نفسه تتعقق كأنها شَنّ ، فاضت عيناه ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماء . وجاءت نوبة سعد نفسه ، فاشتكى ، وذهب النبي يعود ، فلما دخل عليه ، فوجده في غاشية أهله . قال : قد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، فبكى النبي ، وقال : ألا تسمعون

إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا حزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ، وأشار إلى لسانه .

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين ، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والخالفين من أهل الملل الأخرى . رفع إليه بعد إحدى الوقعات أن صبيّة قتلتوا بين الصفوف ، فحزن حزناً شديداً ، فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؟ فغضب النبيّ ، وقال ما معناه : إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، فأياكم وقتل الأولاد ، إياكم وقتل الأولاد . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : مرّت بنا جنازة ، فقام لها النبيّ وقفاً ، فقلنا : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودى ، فقال : أو ليست نفساً ، أو إذا رأيتم الجنازة فقوموا . ولما مات النجاشى نعاه لأصحابه ، ثم تقدّم ، فصفّ الناس خلفه وصلى عليه .

تلك هى الرحمة التى لا تعرف التخصيص بالدين أو الوطن ، ولا فرق عندها بين الرفق بالإنسان والحيوان .

وسُئِلَ مرةً أن يلعن أعداءه ، فقال : ما جئت لعائنًا ، بل رحمة ؛ ولما مات عبدُ الله بن أبي بن سلول ، وكان زعيم المناققين فى المدينة ، وهو الذى رجع بمن تبعه من الطريق يوم أُحُد ، فخذل النبيّ فى أخرج أوقاته ، وله مواقف مشهورة كان فيها شراً على الرسول والمسلمين . لما مات طلب ابنه من النبيّ قيصه ليكفنه فيه ، تطهيراً له ، فأعطاه قيصه كفناً لزيم المناققين ، أرايت أبرّ وأكرم من هذا الصنيع ؟ ثم مشى النبيّ إلى قبره ، فوقف يريد الصلاة عليه ، فوثب إليه عمر ابن الخطاب ، وقال : يا رسول الله ، أتُصلّى على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا : كذا وكذا ، يعدّد عليه قوله ، فتبسّم الرسول ، وقال : غنىّ يا عمر ، قال عمر : فلما

أكثر عليه قال : إني خُيرْتُ فاخترْتُ ، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له ، لزدت عليها وانصرف .

وذلك إشارة إلى قوله تعالى في المناقنين : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ، ففي الخيار بين أن يستغفر ، وألا يستغفر ، نزعته به طبيعته الرحيمة إلى الاستغفار لأعدائه ، بل قال لعمر : لو علمت أني لو زدت في الاستغفار على السبعين لغفر لهم لفعلت أكثر من سبعين مرة .

تلك هي الرحمة التي وسعت أعداءه وأصدقاءه والناس جميعاً . وسمع مرة أعرابياً يصلي خلفه ، يقول : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فلما سلم قال : لقد ضيقت واسعاً .

فمن هذا وغيره مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة ، يتضح أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم نتاجاً للبيئة التي عاش فيها ، وإنما كان الرحمة الشاملة في وسط الجفوة والعصبية والأثرة ، تلك الرحمة التي لا حد لها ؛ هي التي جعلته يدعو لأعدائه وقد سئل الدعاء عليهم في أحد وهو جريح ، وعنه حمزة مُمَثِّل به ، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد ، وهي التي جعلته يدعو لتقيف يوم الطائف وقد امتنعت عليه ، وتلك الرحمة والبرّ هي التي جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة ، وطريق الشام ، وقد سأله صلة الرحم ، وشكوا جوع أهليهم ، وهم الذين أخرجوه من داره ، وحصروه في المدينة .

فرحمته وبرّه صلى الله عليه وسلم نال منهما العدو والصديق ، والقوى والضعيف ، والحرّ والعبد ، والحيوان ، وفاض بها قلبه الكبير ، فكانت في منه بشراً ، وفي عينيه دمعاً ، وفي يده جوداً ، تلك الرحمة التي وسعت الجميع هي أبرز

صفات محمد ، وهى التى يتسابق الأبطال إليها ، فيردّون عن هذا المدى ، ويبقى رسول الله المثل الكامل ، والقدوة العظمى .

٩ — فصاحته وبلاغته

لم يكن بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم إلا بشراً يوحى إليه ، وما أوتى عن طريق الوحي قد فصلت آياته فى الكتاب ، وفيما عدا ذلك من الأقوال والأعمال ، فإنما هى ثمرة عقل راجح ، ولسان فصيح فى ذاتٍ فذة ، وله فى غير الوحي من القول والعمل ما يكفيه لبقى أبداً الدهر إمام البلاغة والفصاحة ، وسيد الرجال ، بل الرجل الفذّ فى تاريخ البشرية ، الذى اجتمعت له أمور ثلاثة :

الأول : تكوين أمة من قبائل وشعوب متنافرة ، كأنما خلقت لتتباعد وتتطاحن ؛ والثانى : تأسيس دولة بقيت قروناً مصدر السلطان فى وسط الدنيا ، ولا يزال أثرها أكثر من ألف سنة يهيبها الملك لآل هاشم أينما ظهوروا فى المشرق والمغرب ؛ والثالث : إقامة دين يدين به مئات الملايين ، ويخلص له العرب والعجم ، والأبيض والأسود والأصفر .

وتلك الأمور الثلاثة التى اجتمعت له ، والتى تكفى كلُّ واحدة منها لتخليد الذكر ، هى بعد الوحي كما قلتِ نتاج ذلك اللسان الفصيح ، والعقل المدبّر . وقد أجمع الناس على أن محمداً الأتمّ قد أوتى من الأسلوب السهل المعجز ما لم يؤت معلم ولا متعلم ، ممن دانت لهم العربية ، وملكوا زمامها ، نله جوامع الكلم ، وبدائع الحكم فى لفظ ناصع ، وقول جزل ، ومعانٍ صحاح خالدة ، فى عبارات مضيئة مشرقة ، لا تكلف فيها .

قال له أصحابه يوماً : ما رأينا الذى هو أفصح منك ، فقال : وما يمنعنى ،

وإنما أنزل القرآن بلساني : لسانٍ عربيٍّ مبين ، وقد فسّر صلى الله عليه وسلم فصاحته بنشأته في بنى سَعْد ، ومولده في قريش ، يريد أنه جمع قوّة عارضة البادية وجزالتها ، ورؤنق الحاضرة وزخرف صناعتها وروعتها . غير أن نشأته في بنى سعد ، ونسبته في قريش ، لا تفسر لنا ناحية أخرى ، وهى مقدّرتة على أن يخاطب كلّ قبيلة وشعب من الشعوب العربية بلهجته ، ويبدى في هذه اللهجات جميعاً من مطّرب القول وجامعه ما يسبى قلب سامعه ، سواء أكان السامع من قحطان أم عدنان ، من أقصى جنوب الجزيرة أم شمالها ، من حجازها أم تهامتها أم نجدها ، فإنه مُقرّئٌ لمحمد بالإمامة في البلاغة والفصاحة ، في أى لهجة جرى عليها الحديث .

كان كلامه بيّناً لا فضول فيه ولا تقصير ، يحفظه من جلس إليه . تقول عائشة : ما كان رسول الله يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه . وروى عنها أيضاً : أنه كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه .

ولقد كان بطل الأبطال ، علم البيان في قومه الذين اشتهروا بالفصاحة ، والذين كانوا يقيمون للأدب أسواقاً ، ويكتبون بالذهب ، ويلقون على الكعبة ما يستحسنون من القول ، وكان في هؤلاء العرب سواء أكانوا في الجاهلية أم في الإسلام ، أبو بكر رضى الله عنه نسابة مشهوراً في قريش ، وكان في حيرة من فصاحة محمد وبلاغته ، قال له يوماً : لقد طُفّت في العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أنصح منك ، فمن أدّبك ؟ قال : أدّبني ربى فأحسن تأديبى . وذلك هو التفسير الصحيح ، لأن محمداً فطّر على صفاء الحسّ ، ونفاذ البصيرة ، وصحة الحكم ، واستقامة الطبع ، مما هو جليّ في قوله وعمله .

ويقول الجاحظ؛ ومكانته في الأدب ما تعلمون ، يصف كلام الرسول: « ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائها عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أغمه خطيب ، بل يَبْدُ الخُطْبُ الطَّوَالُ بالكلام القصير ، ولا يلمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتاج إلا بالصدق ، ثمَّ لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ... من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وإني محاول الآن أن أسوق لكم نبذاً من قوله في مواضع شتى ، ومعان متفرقة ، فيها ترون الفصاحة والبلاغة الحمديدية حية منيرة ، لم تُبَلِّ القرون جِدَّتْهَا ، ولم تذهب شيئاً من طلاوتها . انظروا إلى هذه الكلمات : قال رسول الله : أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعتني ، وأعطى من حرمتني ، وأعفو عن ظلمي ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونظقي ذكراً ، ونظري عبرة .

وقد وجدوا مكتوباً على قائم سيفه صلى الله عليه وسلم : أعف عن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وقل الحق ولو على نفسك .

ويقول ابن عباس : كنت رديف رسول الله فقال : يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا على ذلك ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ ، وطُوِيَتِ الصحف ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين ، فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ، ولن يغلب عسر يسرين .

وعن أبي ذرٍّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حَيْثُمَا كُنْتَ ،
وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

وعن ابن عمرو بن العاص قال رسول الله : « خَصَلْتَانِ مِنْ كَانَتَا فِيهِ كِتَابُهُ
الله تعالى شَاكِرًا صَابِرًا ، وَمَنْ لَمْ تَكُنَا فِيهِ لَمْ يَكْتُبَهُ اللهُ لَا شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا : مَنْ
نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ ، فَاقْتَدَى بِهِ ، وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ ، فَحَمِدَ
الله على مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ » .

وعن حُذَيْفَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ : « لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّةً [وَهُوَ الَّذِي لَا يَثْبُتُ مَعَ
أَحَدٍ وَلَا عَلَى رَأْيٍ لَضَعْفِهِ] يَقُولُ : أَنَا مَعَ النَّاسِ ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنْتُ ،
وإنْ أَسَاءُوا أَسَأْتُ ، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ : إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ
أَسَاءُوا أَنْ تَجَنَّبُوا إِسَاءَتَهُمْ » .

وعن معاوية أمير المؤمنين أنه كتب إلى عائشة : أَنْ اكِتَبِي إِلَيَّ كِتَابًا
تَوْصِيَنِي فِيهِ وَلَا تَكْثُرِي ، فَكُتِبَتْ : سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللهِ بَسُخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى
مِثْلُونَ النَّاسِ ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بَسُخَطِ اللهِ وَكَلَّهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ ،
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ ؛ شَحٌّ هَالِعٌ ، وَجَبَنٌ خَالِعٌ ،
اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ
قَبْلَكُمْ ، سَحَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » ، وَقَالَ : « إِنْ اللهُ كَرِهَ
لَكُمْ ثَلَاثًا ؛ قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ » ، وَقَالَ : « لَا تُظْهِرِ
الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ ، فَيَعَايِيهِ اللهُ وَيَبْتَليكَ » ، وَقَالَ : « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ، الَّذِي
يَأْكُلُ كُلَّ وَحْدَةٍ ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ ، وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله : « يوشك إن طالت بك مدّة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذنان البقر ، يَغْدُونَ في غضب الله ، ويروحون في سخط الله » . وقال : « صِنْفان من أهل النار ولم أرهما : قوم معهم سيّاط كأذنان البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مُمِيلَات ، رءوسهنّ كَأَسْنِمَةِ البُعْث لا يدخن الجنة ، ولا يَرَحْن رِيحها » . وقال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ثم انظروا إلى هذه الكلمات الموجزة ، وتدبروا ما فيها من حكم بالغة : لاخير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له . رحم الله عبداً قال خيراً ففهم ، أو سكت فسلم . الناس بزمانهم أشبه . العِدَّة عطية . العقل ألوف مألوف . لاتزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً ، والصدقة مغرمًا . اتقوا المهلكات : شحّ مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه

كان صلى الله عليه وسلم خطيباً لا يبارى ، يقصد إلى الحقيقة ، فيضعها بين سمع الناس وبصرهم ، لا يحاول أن يستبي القلوب بزخرف القول ، يكره التفاسيح والتنطع ، يبين العبارة ، واضح المعنى ، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير . وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل المعجز .

يقول الخُدْرِيُّ : صلى بنا النبي يوماً صلاة العصر ، ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال : إن الدنيا خِصْرَةٌ حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمتنع رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه ، ألا إنه ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرّة أعظم من غدرّة إمامٍ عاقٍ ، ألا وإن الغضب جرة في قلب ابن آدم ، أمارأيتم حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحسّ بشيء من ذلك فَلْيَلْصَقْ بالأرض .

ثم انظروا إلى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع ، في صفحة موجزة ، يلقونها على مائة ألف ، في موقف عَرَفة ، في حِجَّة الوداع ، فيها ألقى مآثر الجاهلية ، وقرّر مبادئ المساواة ، وحرّم الثأر ، وقضى بذلك على أقدم عُرف للعرب ، وأمسّ شئء بقلوبهم ، وقضى كذلك على الرِّبَا ، ورفع درجة المرأة ، وحرّم الفتن والنهب والغزو ، وكان مفخرة وعزّة ، وأحلّ الأشهر الحُرُم ، فسوّى بين أوقات السنة فيما هو حلال أو حرام ، وقد كان الروم يستغلّون تحريم العرب للقتال في شهور معينة ، فيعتدون على حدودهم ، ونصح الناس في أمور شتى ، وحذّروهم ما يحقّرون من أعمالهم ، ويستهيئون به من الآثام .

قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدري لعلّ لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ؛ أيها الناس : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ، ورجب مُضَرّ الذي بين مُجَادَى وشَعْبَانَ ؛ أي شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأى بلد هذا ؟ أليس البلدة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأى يوم هذا ؟ قال : أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعن بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ ... فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنّه عليها ، وإن كلّ ربا موضوع [أي مهدر] ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب [عمّ النبي] موضوع كله ، وإن كلّ دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أوّل دماءكم أضع دم ربيعة بن الحارث

ابن عبد المطلب [أى ابن عمّ النبی] . أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبدَ بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك ، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيُحلّوا ما حرم الله .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهنّ ألا يُوطئنَ فرشكم أحدًا غيركم تكرهونه ، وعليهنّ ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع ، وأن تضربوهنّ ضرباً غير مُبرّح ، فإن اتتهن فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف .

أيها الناس : استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهنّ عندكم عَوَانٌ^(١) لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً ، فاعقلوا - أيها الناس - قولي ، فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا : كتاب الله ، وسنة رسوله .

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تَعَلَّمَنَّ أَنْ كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحلّ لامرئٍ مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ .

فأجاب الناس من كل صوب ؛ نعم . فقال : اللهم اشهد ، ونزل عن ناقته . هذه الخطبة جمعت أصولاً قد تبدوا الآن معترفاً بها ، مجعاً عليها ، ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربي وقت إلقائها ، بل حالة المجتمع الإنساني ؛ يعرفون أنها كانت أساساً جديداً لأكبر انقلاب اجتماعي منذ ظهوره صلى الله عليه وسلم ، ويلحظون إحاطتها على قصرها بالداء والدواء ، وإن فيها أسس الحضارة التي جعلت من العرب الضلّالِ أمة تسوس المشرق والمغرب قروناً كثيرة .

(١) جمع غانية ، أى أسيرات ، شبههنّ بالأسيرات لضعفهن .

وهاهى ذى الأيام تمرّ فتُبلى كلّ جديد ، وفصاحة محمد وبلاغته لا تزال نضرة
عذبة ؛ ينتهج بها المتطلع إلى الأدب والعلم ، ويجد فيها الأديب ربّياً وشفاء .

١٠ - حسن سياسته وحكمته فى تصرّيف الأمور .

حاولنا فيما تقدم من الأحاديث أن نُبرزَ للناس بعض صفات بطل الأبطال
صلى الله عليه وسلم ، وإنا لنترجو أن يجد فيها الناس ما يصلح من شأنهم ، والآن
نريد أن نصوّر ناحية من نواحيه الأخرى ، هى مثل لرجال الدولة والسياسة والقادة
فى جميع ميادين الإصلاح . فلعلهم كذلك واجدون فيها ما يمكنهم من النجاح ،
فإن محمداً بما أُوتى من الأخلاق ، وما وهب له من حسن السياسة ، وتصرّيف
الأمر ، ووضعها فى نصابها ، قد أُوتى النجاح الذى لم يؤت أحدٌ قبله ولا بعده .

هذه الناحية من حياته يبدو فيها محمد مثلاً عالياً لرجل الدولة ، وسترون بها
ميزة على من سبقه من الأنبياء والرسل ، ولقد كانت أكثر وضوحاً فى المدينة
حيث استلزمت الأحوال أن يكون نبيّ الأمة زعيمها وقائدها ، وحيث أخذ
التشريع الإسلامى يتناول الحياة السياسية والاجتماعية بتوسع وتفصيل أكثر مما
كان فى مكة ، وقت كانت الدعوة لا تزال فى بدايتها ، متجهة بكلّ قوتها إلى
تعريف الناس بالله ، وإنذارهم بحسابه وعقابه ، ذلك الفرق بين مظهرى الدعوة فى
بيئتين مختلفتين ، جعل بعض كتاب الملل الأخرى يحاولون أن يصوّروا محمداً فى
شخصين : مكّي ومدنىّ يقولون : هذا نبيّ ، وهذا رجل دولة وصاحب سلطان .

لأن الذين يظنون هذا الظن كانوا بعيدى النظر ، لرأوا محمداً الواعظ فى مكة ،
هو محمداً الناسك فى المدينة ، الذى تتورّم قدماه من كثرة الوقوف بين يدى الله ،
والذى يموت وهو رأس الدولة ، ودرعه مرهونة عند يهودى .

بل لرأوا محمداً الذي يشيعه العبيد والصُّبَّة والسُّوقَة من الطائف بالسخرية والحجارة ، و يقيمونه إذا جلس من الإعياء ، فيدعو الله لهم بالهداية .

هو محمد الذي يناول مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة يوم الفتح ويقول : اليوم يومُ برٍّ ووفاء .

لو أن هؤلاء الذين جعلوه نبياً في مكة ، ورجل دولة في المدينة لاحظوا كيف وضعت نواة الدولة في أيام المحنة بمكة ، لما حسبوها من غرس يثرب ، بل علموا أنها نتيجة محتومة للصراع العنيف الذي دام ثلاث عشرة سنة ، ونتيجة للدعوة من وقت أن قال الله عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وما قامت الدولة في يثرب إلا على أيدي تلاميذ النبي في مكة ، ممن هاجروا في سبيل الله إلى الحبشة أولاً وثانياً ، ومن هاجروا إلى يثرب بعد ذلك ، وعلى سواعد الأنصار من أصحاب البيعة الأولى والثانية عند العقبة في مكة .

أولئك هم نواة الأمة النموذجية التي غرسها الرسول في المدينة ، وشاد عليها الدولة الحمدية ، ثم ظهرت [الأمبراطورية] الإسلامية على صورتها فيما بعد .

كان محمد في مكة والمدينة من ساعة أن استيقظ على صوت الرفيق الأعلى في حراء ، إلى أن استجاب روحه لذلك الرفيق في بيت عائشة ، واضح الهدف ، متعدد الوسيلة ، راجح العقل ، حسن السياسة .

قبل في مكة أن ينتفع بعرفها ، فعاش في جوار عبد المطلب وهو مشرك ، وطلب في عودته من الطائف جوار المطعم بن عدى فدخل مكة في حمايته وهو مشرك ، ولذلك قبل الاستفادة من نظم أهل الأوثان ، ليقهر الأوثان في مكة ؛ وقبل في المدينة أن ينظم أهلها ويعاهدهم ، ويستعين بهم ، ويقودهم إلى النصر ، ليحمي نفسه وصحبه ، ويقضى على الأوثان .

موهبة واحدة ، ووسيلة واحدة ، لغاية واحدة ، في أحوال شتى ، أخطأ هؤلاء الكتاب تصويرها .

وإن كان يبدو في المدينة كثير التشريع والتنظيم والتصريف لشئون الحياة ، فليس ذلك برهاناً على تغيره ، بل على تفوقه ، وأنه فياض الموارد ، خصب العقل . فذات الرسول التي وقفت في وجه المشركين ثلاثة عشر عاماً بمكة لا تعجز ، ولا تهزن ، ولا تيأس ، هي ذاته التي فاضت في المدينة على شئون الدنيا ، فذلت على ما فيها من الحيوية والقوى التي جعلتها أهلاً للتغلب على كل معضلة في وقتها ومناسباتها . تلك القوى والصفات التي لم تجتمع لأحد قبـله ولا بعده ، جعلته من أية ناحية نظرت إليه مثلاً كاملاً ، وأُسوة حسنة ، بل من مجموع هذه القوى والصفات يبرز للناس رسول الله سواء أكان في أيام الدعوة المجردة عن السلطة ، أم في أيام الدعوة المصحوبة بالرياسة الزمنية في المدينة ، ذاتاً موفقة ناجحة ، انصرفت إلى الله بكليتها ، فجعلته أمامها ، ووضعت ماعداه وراءها . هو في كلتا القريتين الناسك العابد ، الباكي بين يدي خالقه ، وهو فيهما الزاهد ، يعرض عليه أصحابه أن يُوطئوا له فراشاً ، فيقول : مالي والدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها ، لم يغره السلطان بشيء من المظاهر ، ولا خرج به عن التواضع والتياسر .

فأي تناقض يجد النقاد في حياة الرسول ، ليجهلوا من شخصه شخصين ، وهو يكافح في مكة ولا سلطان له ، ويجهاد في المدينة على رأس الدولة التي خلقها ؟ لقد كان همه فيهما جميعاً إلى اللحظة الأخيرة ، نشر دينه ، وغايته بسط سيادة الإسلام على الشرك .

وأي تناقض يجد نقاده بين حياته في مكة ، وحياته في المدينة ، وهو في الأولى يتوسل بالصبر على الأذى والسخرية ، ويتقن بعُرف الجاهلية الموت مع أنه لا يقرّ

ذلك العرف ، ويسعى لهدمه ، ويرسل المؤمنين مهاجرين إلى الحبشة ، ويجادل عن دينه ، ويدعو إليه ، ويخرج من كل كارثة برأى صائب ، ويعدّ لكلّ حالة تدبيراً محكماً ، وفي الثانية يتخذ من نصرة أهلها تكأة ، فيعاهد اليهود والمشركين ، ويتقى الموت بدرع الدولة التي نظمها ، وينجو من الأحزاب بحسن الرأى ، ويغلب المصائب بموفق التدبير .

ثلاث عشرة سنة قضاها في فم الأسد ، دون أن يستطيع الأسد أن يطبق عليه أنيابه ، وعشر سنين في المدينة يحاول فيها الأسد أن يمسك بالفريسة ، وفي هذه وتلك يبدى رسول الله من حسن الرأى ، وبارع السياسة والصبر ، وسعة الصدر والتدبير ، ما يوقع الأسد في شبكة الفريسة ، فإذا ما انتهى إلى النصر الحاسم المعجز ، وبُهِت الذين كفروا ، قالوا : لو أنه لم يقم دولة ، ولم يُقدّ جيشاً ، لكان النبيّ الخالص من الشوائب .

لو أن الذين يأخذون على محمد أنه لم يقتصر على حياة الوعظ ، وظنوا أن الأكل له أن يقف عند الجهر بالدعوة حتى يقتل ، فكروا في مصير الدعوة نفسها ، لشاركونا في الإعجاب به مرشداً وواعظاً ، ومنظماً ، وفاتحاً .

فبين جُفأة الأعراب في بيئة الأوثان والعزة بالعصبية ، والتفاخر بإباحة الدماء والأموال والأعراض ، لم يكن لدعوة محمد بعد قتله مصير إلا الاندحار والسخرية به وبها ، وقد علمت ذلك قريش ، وأعدّوا له عُذّته . وهيثوا لبنى هاشم من بعده الموقف الذي ليس لهم فيه الدية صاغرين .

لو أن هؤلاء النقاد كانوا أكثر بصيرة بحياة العرب ؛ لأدركوا مع السهولة هذه الحال ، ولو سلك الرسول ذلك السبيل ، وبقي في موقفه ساكناً إلى آخر لحظة ، لما بقي من دينه إلا بعض مواظ تروى ضمن أساطير التاريخ ، أو لبقيت الدعوة على أحسن الفروض ، موكولة إلى المصادفات كما بقى غيرها ، حتى يتاح لها رجل

من الجبارة ، أو من المصلحين ، يأخذها ويضع سيفه بجانبها ، حتى يظهر على غيرها ، وهى صورة مُحَرَّفة لما أراد الله وأراد محمد . ومع ذلك ماذا يريد الناقدون من رجل كامل العقل والرجولة أن يعمل ، وقد همَّ القوم بقتله ، فقرَّ منهم ، ويهمون بتعقبه للقضاء عليه فى ملجئه ؛ وكلَّ ما بينه وبينهم من خلاف قائم على نفس العقيدة التى ملكت قلب محمد ، والتى احتمل فى سبيلها صنوف الأذى والعذاب ، والتى هى عنده أساس الخلود ، ووسيلة الحياة الأخرى ، أكان ينتظرهم فى المدينة حتى يأتوا إليها فيقتلوه ؟ لو كان مطلبه متعلقاً بشيء فى النفس من متاع الدنيا ؛ لأمكن أن نلاحظ على ما بيننا وبين أولئك الكتاب من خلاف وجهة نظرهم ، ولكن أمر محمد لم يكن شيئاً من هذا فى قليل أو كثير .

لقد كان محمد أبعد الناس نظراً ، وأرجحهم عقلاً ، فند أن وصل إلى المدينة أخذ فى إعداد العُدَّة لحماية الدعوة من قوم لا يحترمون غير القوة ، ولم يفلح فيهم النصيح ثلاثة عشر عاماً .

نظر بثاقب فكره فى وسائل الدفاع عن النفس والصحب ، فأحسن ابتكارها وأحسن استعمالها ، وانتهى إلى النصر الذى تقول فى صاحبه دائرة لمعارف البريطانية : إنه النجاح الذى لم ينل مثله مصلح دينى فى زمن من الأزمان .

ذلك النجاح المقطوع النظير لم يبدل من حالة محمد فى نُسْكه وتعبده ، وزهده وتواضعه وتياسره ، وبرّه ورحمته ، ومظهره ومخبره ، ومطلبه وغايته ، بل بقى والدعوة غالبية فى المدينة كما كان والدعوة مغلوبة فى مكة .

فمعظمته عندنا هى فى ملكه ، وفى نبوته ، وفى ملكه برهان آخر على نبوته ؛ فإنه يتف وحده فى تاريخ الفاتحين ناسكاً فقيراً زاهداً أوتى كل السلطان ، ثم يموت لا يوصى لأحد بعده ، ويحرم ذريته وأهله الأوفياء ، لا من الملك الذى شاده

وحده ، بل مما يرث الناس عادة ، ويقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

يذكر في صلاته ، وهو بكامل العافية شيئاً من تَبْرِ في بيته ، فيسرع فيها ، ويدخل البيت ، فيخرجه ويوزعه ، خاشعاً أن يدركه الموت ؛ وله شيء من الدنيا . ويدخل مكة فاتحاً ، فيضع رأسه ويطأطئه وهو يسير على ناقته وأعدائه على الهوان والعجز ، ويخشى أن تحدثه نفسه بشيء من العجب أو الغرور .

والحق الذي لامرأ فيه ، أن محمداً في حياته بالمدينة ، وبقيادته للأمة وتوليّه الحكم ، أدى الرسالة التي اختصه الله بها أحسن أداء ، فأرانا بالفعل لا بالقول ماذا يجب أن يكون عليه الحاكم في كل المناسبات والأحوال ، والناس محتاجون للحاكم وللدولة مادامت الحضارة بل ما دامت الدنيا .

فلو أنه قضى ولم تبرز لنا هذه الناحية ، لما كان المثل الكامل الذي سعد الناس به ، ولو كانت المواعظ وحدها كفيلاً بالإصلاح ، لوجد الناس في الكتب ما يغني عن المصلحين .

ولكن هي الأمثال تُضْرَب ، والأقوال تُطَبَّق ، والعين ترى ، والأذن تسمع ، والحسّ يشارك الفكر .

هو ذلك كله الذي يطبع الناس بالمثل الصالح ، ويحرك البشر إلى المجهودات النبيلة المثمرة ، ومحمد لهذا كما يقول : [بوزورث اسميث] أكبر المصلحين على الإطلاق .



في الحديث السابق ردّ موجز على بعض كُتّاب الملل الأخرى ، الذين أرادوا أن يصوّروا محمداً في شخصيتين : مكّيّة ومدنيّة ، وبيّنت خطأ هذا التصوير .

والآن أنتقل إلى قصدى من الحديث ، وهو بيان ناحية من نواحي الرسول فيها درس كامل ، وفيها ضياء يكشف لنا عن الأخلاق السامية ، التي كانت موضع أحاديثنا السابقة ، بل فيها صور لا تقرب من وصف محمد للناس إلا بمحاولة إخراجها. جاء صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ورفيقه أبو بكر بعد سفرة شاقة ، وخوف زلزلت له نفس صاحبه ، جاءها لاجئاً يطلب لنفسه وصحبه الأمن في جوار أهلها ، فما استقرت به النوى حتى لحظ بثاقب بصره حاجتها إلى السلام ، وإلى التنظيم الداخلي ، وحاجتها إلى الأمن الخارجي .

جاء يثرب [التي سُمِّيَتْ مدينة النبيّ فيما بعد] والأوس ^(١) والخزرج ^(٢) فيها قريبا عهد بوقعة بُعث ^(٣) ، والعداوة القديمة بينهما تثيرها الأحداث الجديدة ، واليهود يُدّكون نار الفتنة ، ويخشون سوء المنقلب إذا ما اتحدت الأوس والخزرج جاء إلى المدينة وأصحابه الذين هاجروا إليها ليس لهم فيها حول ولا قوة إلا حول اللاجئين المستظّل بجوار قوم لا يحبون أهلهم وعشيرته ، فاستقبل من المسلمين بحماسة عظيمة ، ومن اليهود والمشرّكين يبشّر لا بأس به . هؤلاء يأملون أن يصلح الله به ذات بينهم ، وأولئك يطمعون في استخدام العربي الخارج على الأوثان ، المتودّد لأهل الكتاب ، الاعتزاز على العرب من ناحية ، ومقاومة النصرانية في الشمال من ناحية أخرى . فكان مركزه لذلك على جانب عظيم من الدقّة ، عرضة لانتكاس اليهود والمشرّكين ، كما هو عرضة لبغى مكة ، وشرّها المستطير .

فلننظر كيف تناول الموقف بحكمته ؟ وبرهن على أنه أهل لكلّ جليل من الأمر ، ليس بما اختصه الله به من الوحي فقط ، بل بما أوتيّه رجلا في ذروة الإنسانية ، من حسن التدبير وكمال العقل .

(١) و (٢) أنصار النبي من أهل المدينة هم قبيلتا الأوس والخزرج ابناقيلة ، وهى أمهما ، نسبا إليها ، وهما ابنا حارثة بن ثعلبة من الين .
(٣) يوم بعث بضم الباء : يوم معروف كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية .
وبعث اسم حصن للأوس .

شرع في الحال في بناء المسجد ، وما هذا المسجد ؟ وفيه كانت الأساس التي وضعها لصالح الدين والدنيا ، وأصبح معبداً و [برلماناً] ومقرّاً للسلطة التنفيذية ، ومركزاً للقيادة العليا ، منه تصدر الدعوة إلى الله ، والشرائعُ خلقه ، وجميع الخطط والتدابير الإدارية والسياسية والعسكرية ، وفيه تستقبل الوفود ، ويُلقن العلم .

كان المسجد على سذاجة بنائه وأثاثه ، وعلى قلة الأوضاع فيه ، يتناسب كل التناسب مع تياسر محمد وأصحابه ، وانصرافهم للجوهري من الأمر . ويذكر الناس في كل حين بهذه الحقيقة ، وهي أن الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التي تعني بالروح والخلق ، لا بالافتتان في الأوضاع ، والإسراف في المظاهر .

ومن هذا المسجد الحقيرنمت تدريجياً الإدارة الإسلامية إلى أن شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفي هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة ، وأحوال طارئة ، ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الإدراك ، كانت بذوراً لأوسع الإدارات الأمبراطورية ، وقواعد لأكبر إصلاح بشري . من هذه التدابير ظهرت يثرب وطنناً لأهلها ، لامسكناً لأقوام متنازعين فيها ، وطنناً آمناً للمسلمين والمشرّكين واليهود ، وللنازحين إليها من أية قبيلة كانوا ، ولأى عنصر انتسبوا ، عرباً أو عجماً .

فظهر لأول مرة معنى الوطن ، تتساوى الناس فيه تحت نظام يعطى حقوقاً ، ويلزم تكاليف ، من غير نظر إلى الأحساب والأنساب والعصبية والعقائد .

انظروا إليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد في صحيفة بين أهل الأديان والأجناس ، تجعلهم جميعاً وطنيين مكلفين الدفاع عن الوطن أمام أي اعتداء عليه ، متكافئين في الحرب والسلم ، لا ينصرون غيرهم ، ولا يماثلونه على أهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، وتكفل حرية العقيدة لأهل الوطن ، وحرمة أملاكهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدىء الصحيفة ببسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم قرر أن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، ثم قرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بنى عوف ، ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، إلى أن تقول : وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انقادت إلى النبي سلطة يثرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت اليهود أن تنص على حكم في حالة الخلاف ، ولم يكن إلا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الأساسى لدولة الإسلام .

فقضى رسول الله على الفوضى ، والإباحة للقوة ، وجعل لأول مرة في البلاد العربية حق الأمة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع إقامة الحدود إلى الله ، أى إلى شريعته ، وإلى رسوله منفذ هذه الشريعة ، وكانت إلى ذلك الحين تتولاها القوة الفاشمة وحدها ، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبرىء ، وبذلك غرس لاجئ إلى يثرب بذرة الحضارة في أشد الأقوام نزوعاً إلى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الأمبراطورية التى أزهرت قرونا طويلة ، ولاتزال فخر المشرق ، وحديث المغرب . أدرك محمد صلى الله عليه وسلم بما أوتي من العقل الراجح ، أن النظام الذى يريده

ليثرب أولاً ، وللعالم أخيراً لا تكفله صحف الدساتير وحدها في قوم غلاظ ، سراع إلى الفتنة ، شديدي التمسك بالعصبية ، بل لا بد من القوة لحماية الدعوة ، وصون النظام الذي وضعت قواعده في هذه الصحيفة ، وما تبعها من عهود صارت في مجموعها دستور الوطن الجديد ، هذه القوة لا تكون إلا في سواعد المؤمنين الذين هجروا وطنهم إلى الحبشة وإلى يثرب ، فرار من النظام العتيق ، وخروجاً على دعوة الجاهلية والعصبية ، فهم حُماة عهد الحرية والنظام ، الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من هؤلاء المهاجرين كان الفوج الأول من الجيش الحمدي ، ومن الأنصار كان الفوج الثاني ، فهم المتطوعون الذين صادفت الدعوة من نفوسهم موقع القبول والبشر ، فلم يكن هناك سند للحرية والنظام الجديد غير المهاجرين والأنصار ، من بطون قريش وقبائل أخرى بينها من المنافسة ما بينها ، والأنصار هم خصوم قريش ومنافسوها ، وقد كادت كذلك العداوة والبغضاء التي بين أهل المدينة تقضى على وجود الأوس فيها قبيل وصوله صلى الله عليه وسلم

فتأليف هذا الجيش من المهاجرين والأنصار ، ومزجه ، وتدريبه ، وتربيته حتى يكون وحدة متماسكة ، غايتها نصر الدعوة ، ووسيلتها الطاعة والنظام ، وعدتها الإيمان ، هو العمل العظيم الذي برزت فيه صفة رسول الله العسكرية ، ومن أبطال هذا النوع من الفاتحين السابقين واللاحقين في المدينة ، وبعد مضي ستة أشهر فقط من وصوله إليها ، أخذ يعد هذا الجيش ويهيئه ، حتى اصطدم به بعد سنتين في بدر مع قوة تفوق عليه في العدد ، وفي شهرة صناديدها ، كما تزيد على ثلاثة أمثاله في العدد ، فرأى الناس معجزة النظام والتدريب ، ومنذ هزيمة بدر لم تقم للوثنية قائمة ، ولا وقف الجيش الحمدي حتى بلغ قلب فرنسا ، وقلب الهند . رأى هذا الخليط من أتباعه في يثرب عرضة لدعوة العصبية ، فدعاه إلى التآخي وجعل للرجل من قريش أخاً من الأوس ، وللآخر أخاً من الخزرج ، ومازال يؤاخي

بين هذا وذاك ، ويعقد بينهم أواصر أخوة في الله ، حتى شمل القبائل والبطون ، ووصل بهذا التآخي في العقيدة إلى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها ، وجعل الميراث للأخ في العقيدة ، دون الأبناء والآباء .

هذه المؤاخاة التي تجدون حديثها في كتب السير مطوّلاً ، وفيها تفصيل الأسماء والأنساب ، هي أساس الأمة الإسلامية ، وأساس النصر في كل مواقع الإسلام فيما بعد .

وقف أبوسفيان ينظر إلى جيش محمد يوم الفتح ، فكلها مرّ فوج قال : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل : سليم أو مزينة أو غيرها ، وهو لا يعبأ بهم ، حتى لاحت الكتيبة الخضراء من هؤلاء الإخوان ، فقال للعباس : ومن هؤلاء ؟ قال : المهاجرون والأنصار ، فقال أبوسفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً .

هذه الأخوة في الله التي قضت على عرف القبيلة ، وعصبية الجاهلية ، والتي تعهد بها رسول الله بعنايته ، أخرجت الأمة العربية من الاختلال والتشتت إلى حياة الوحدة والنظام ، وهيأت [للأمبراطورية] الإسلامية مكاتها التاريخية .

كان محمد صلى الله عليه وسلم رجل جدّ ، بصيراً بالعواقب ، شديد اليقظة ، دائم التفكير ، علم أنه لا يكفي لأمن يثرب أن يضع لها دستوراً يكفل الحرية والتعاون بين مسلميها ويهودها ومشركيها . ولا يكفي أن يؤاخي بين أنصاره المؤمنين لكي يكفل النظام الداخلي في المدينة ، مادامت المدينة كلها كالجزيرة في المحيط ، لا تصل إلى ناحية من النواحي إلا بإذن المشرّكين وتسامحهم ، وهي في هذا المحيط الذي تتولى زعامته الدينية قريش أضيع منها قبل هجرته إليها ، إذ لم تعترف قريش والعرب لها بالوجود وتوادعها . ولننظر كيف أخذ يعالج هذا الخطر ،

ويجعل من المدينة الضائعة المحصورة قاعدة الجزيرة العربية ثم عاصمة الأمبراطورية في بضع سنين .

كان في المدينة على مفترق طريقين : طريق يريده له بعض كتّاب الملل الأخرى ، وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ، ويعجزون كلّ العجز إذا اعترضتهم عقبات الحياة ، وسخافات البشر ، وسنن الوجود ، وطريق آخر هو الذي سلكه لأن الله أرشده وأعدّه ليكون المثل الكامل في القول والفعل . أما الأول فهو الطريق الصامت ، وأما الثاني فهو الطريق العامل ؛ ففي الأول كان عليه أن يكتفى بالإقامة في المدينة كما كان في مكة واعظاً مرشداً ، معوّلاً على حماية من عاهدوه من أهل المدينة ، منتظراً ما تفعل قريش ومن حول يثرب من الأعراب ، فإن أحسنوا وتركوه في عزله كان لهم الفضل ، وإن جاءوا فقصوا عليه ، كان له أجر الشهادة ، ولهم فخر النصر ؛ وأما الطريق العامل ، فهو أن يدرك هذا الخطر ، ويعمل على منعه ، ويقوم على دعوته ، مناضلاً مجادلاً مجاهداً حتى يفوز بغايته ، ويضمن للذين آووا ونصروا والذين هاجروا معه ، السلامة والعزة .

لم يكن محمد من الوعاظ الذين يمرون على الحياة يلقون إلى الدنيا كلمة الخير ، ثم لا ينظرون : أذهبت مع الريح أم بقيت ؟ فهو بمقتضى رسالته ومروءته ورجولته الكاملة شخص آخر ، هو الجدد في صورة رجل ، والإيمان الراسخ ينسف الباطل نفساً .

ما جاء المدينة ليبنى صومعة ، ويسأل المشركين واليهود حمايتها ، فلم يكن بمقتضى طبعه ومناسباته يستطيع أن يسلك السبيل الصامت دون أن يصل به إلى الإخفاق المحقق .

نصر بعض أهل المدينة محمداً إيماناً به ، ووافقهم المشركون طمعاً في الاعتزاز على مكة ، وتحويل تجارتها إلى سوق يثرب ، وكان في المدينة اليهود يعتقدون أنهم

شعب الله المختار ، وأنه لا يختصّ بالنبوة أحداً غيرهم ، ويطمعون في أن يعتزّوا بمحمد على العرب ، ويؤيدوا به دعوتهم .

وفي المدينة المهاجرون أصيبوا بِجُمحى يثرب من أول حلولهم فيها ، وتشاءموا من عُمّ نسائهم ، حتى إن امرأة الزبير لما ولدت كان نفاسها عيداً ، وصحبهم الفقر بعد أن تركوا أموالهم في مكة ، ذلك هو الأمر الذى لا مخرج منه إلا بالجدّ والعمل ، ورسول الله قد برهن فيه على فيض من العقل وحسن السياسة ، لم يؤت مثله مصلح ولا فاتح في زمن من الأزمان .



في الحديث السابق انتهيت بوصف موجز لحالة المدينة ، وبيّنت باختصار آمال اليهود ، وأطماع المشركين ، وحركة المسلمين ، وقلت : إنه لم يكن أمام الرسول مخرج إلا الجد والعمل الحاسم ، والآن ننظر في حالة مكة والمشركين حول المدينة ، ليتبين فضل حسن السياسة والحزم في التغلب على ما يشبه المستحيل .

يُظن أن مكة قرية بأسة ، محرومة ، في واد غير ذى زرع ، وقليل من يعلمون أنها في وقت ظهور الدعوة الإسلامية كانت من أغنى القرى ، بل كانت سوقا من أربح أسواق التجارة في العالم القديم ، وكانت قريش فيها من أعظم التجارة ، وأخبرهم بحال من حولهم من الأمم . وأهل الموقع نفسه ، والحرمان الطبيعى ، هو الذى حفزهمهم ، وضاعف نشاطهم ، فساحوا في الأرض ، وابتغوا فضل التجارة ، ألم نسمع بمغامرات فينقية في التاريخ القديم ، وبريطانيا في التاريخ الحديث ؟ أليس سر نجاح هذه الأمم هو في عجز أوطانها عن تقديم حاجات الحياة ، مما دفعهم إلى المغامرة ، وطلب الرزق في أسواق العالم ، فصاروا أغنى أهل الأرض ، في أفقر

بقاع الأرض ؟ كذلك كانت مكة وقت ظهور الدعوة الحمديّة : كان أهلها فى بسطة من الرزق ، ومتاع بكل مالذ وطاب من مُنتجات العالم القديم .

يقول البحّانة « اسبرنجر » إن صادرات مكة فى وقت الهجرة لم تكن تقل قيمتها عن خمسين ومائتى ألف دينار من الذهب ، والدينار خمسة عشر فرنكا ، أى نحو ثلثى الجنية المصرى .

فإذا ذكرنا ارتفاع قيمة المعادن النفيسة فى ذلك الزمن ، وذكرنا أن « اسبرنجر » إنما يقدر قيمة الصادرات وحدها ، أدركنا مقدار البضائع التى تتبادلها مكة ، وهى الوسيط بين اليمن والحبشة ، والأمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وكانت هذه التجارة الواسعة غير محصورة فى بيت أو فريق من الناس ، بل تجدون فى كتب السيرة أن أباسفيان حين أحسّ الخطر على القافلة قبيل بدر ، استنهض مكة كلها ، فخرج إليه ألف من المقاتلة ، معها مائة من الخيل ، وسبعمائة من الإبل ، ولما أصيبت قريش فى بدر تبرع أهل مكة بقافلة أبى سفيان كلها ، ليُعِدُّوا بها للانتقام من محمد وأصحابه ، وقد كانت أرباح مكة من هذه التجارة الواسعة تقدر بخمسين فى المائة من رأس المال ، مما أتاح لها حياة من البذخ تلاحظونه فى كرم أهلها وهم يضيفون حاج الجزيرة كله ، ويسرفون فى اللهو بالخنز والميسر والقيان والطرب .

أما حالة النبى وأصحابه بالمدينة فقد مر فى بعض الأحاديث ما يكشف عنها . فالمهاجرون وقد صودرت أموالهم ومساكنهم فى مكة ، جاءوا المدينة وليس لهم من الدنيا غير إيمانهم ، فهذا ابن عمير لا يجد ما يستريح به ، وهذا على بن أبى طالب يطل من ثقب الباب على يهودى ليعمل فى بستانه ، كلما نزع دلوا نال ثمرة حتى نال حفنة . وهذا رسول الله يخرج إلى المسجد فيجد أبا بكر وعمر ، فيقول : ما أخرجكما ؟ فيقولان : الجوع ، فيقول : وما أخرجنى إلا الجوع . فإذا ترك الرسول مكة تنعم

بما هي فيه ، وتسمع بما هم فيه ، أ يكون ذلك مؤيدا لانتشار الدعوة ، وخِذْلان الشرك ؟ كلا . فإن قريشا كانت تجعلهم مضرب الأمثال ، وموضع السخرية ، تمر على المدينة بمتاجرها وعزها ، تستهوى الضعيف ، وتفتن البأس ، ثم تبطش انتصاراً لهُبل ، وترضى بأذى المسلمين اللات والعزى .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أصدق لرسالته ، وأبرّ بأصحابه ، وأسمى همة ، وأعظم شجاعة من أن يستكين ، وأن يقيم على هذا الهوان ، فشرع في الحال تهيأ للعمل الحاسم ، يرد به قريشا إلى رشدها ، بإصابتها في أعز شيء لديها ، وهو تجارتها ، ويردّ الأعراب عن ذلك الحصار ، الذي يجعل من الشرك نطقاً حول المدينة ، ويؤمن المدينة نفسها من الفتن ، التي يثيرها اليهود بين أوسها وخزرجها ، وبين المشركين المسلمين عامة .

تلك أغراض ثلاثة لا بدّ لإدراكها من القوة ، وخلق هذه القوة وتنظيمها ، والاستعانة بها على أسمى المقاصد : هو عمل امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم ممن سبقه من الرسل . وذلك الدور في تكوين المدينة وتدريب المهاجرين والأنصار ، والخروج بهم على الناس جميعاً ، هو من أدق ما امتحن به محمد مصلحاً ، ورجل دولة ، وفيه تجلّى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى ما لا يضاويه إلا أخلاقه الفاضلة .

بعد وصوله إلى المدينة بستة أشهر فقط عقد أوّل راية في الإسلام لعبيد الله ابن الحارث بن المطلب ، ثم أخذت سراياه وغزواته تتابع ؛ وبالرغم من أن كل هذه السرايا قبل بدر لم تدرك غرضاً من الأغراض الظاهرة من قريش ، فإنها أدركت أغراضاً سياسية وعسكرية كان لابد منها لتثبيت الحكم ، وظهور الدولة ، فقد أحييت آمال المهاجرين ، ورفعت حالتهم المعنوية ، ونشطت أبدانهم التي كانت دائماً غرضاً لحمى يثرب ، كما عوّدت المسلمين العمل المشترك في قيادة موحدة ، ليس للأحساب

والأنساب سلطان فيها ، ولا للتبيلة والعصبية علاقة بها ، بل إن هذه الحركات العسكرية المستمرة هي التدريب الدائم ليوم الفصل .

وقد علمت المدينة من هذه الحركات العسكرية أن محمداً جاداً في مقاومة القوة بالقوة ، وعلم الأعراب أن الرجل الذي يخرج بسرّياه ليتعرّض لقريش ، ليس بالذي يُغمز جانبه ، أو يُباح حماه ، ولو علموا فيه ضعفاً لتطاولوا على المدينة ، وجعلوا من نهب حيوانها وقتل رعاته ، حديث فخرهم ، وأناشيد نسائهم .

وكذلك علمت قريش أن محمداً وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربّنا الله ، صاروا في المدينة أخطر على حياتها الاقتصادية ، وإن ظنّتهم أقلّ خطراً على حياتها الدينية ، وفهمت أنه الآن يصادرها في أعزّ شيء لديها ، وهو التجارة ، كما صادرتها في أعزّ شيء لديه ، وهو العقيدة ، فإن كانت تريد حرّية التجارة ، فلا بدّ لها من الاعتراف بحرية العقيدة ، وهو ما وصل إليه في معاهدة الحديبية بعد تلك الحوادث الدموية في بدر وأُحُد والأحزاب .

دامت هذه التدريبات العسكرية نحو سنتين ، فلما أحسن النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه القدرة على قبول معركة ترفع مقامهم في نظر العرب كافة ، لم يتردد في التقدم لها ، فنزل بدرأ ، وانتظر فيها قريشاً ، فجاءته في العدد والعُدّة ، في ألف مقاتل ، بأحسن أسلحة العصر ، ومائة فارس ، وسبعمائته بغير .

وكان هو في قوّة من أربعة عشر وثلثمائة راجل ، سلاحهم السيوف ، ومعهم ثلاثة أفراس ونحو سبعين بغيراً .

أراد أن يطمئن إلى حسن استعداد أصحابه للقتال ، فسألهم الرأي ، فأما المهاجرون فتكلموا وأحسنوا ، حتى قال المقداد بن عمرو : امض يا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحقّ : لو سرت بنا إلى بَرَك الغمام^(١) لجالدنا معك من دونه ،

(١) موضع باليمن ، وهو بضم الغين وكسرهما .

حتى نبلفه ، فشكره رسول الله ، ثم قال : أشيروا على أيها الناس - يريد الأنصار - لأن بيعتهم له كانت على أن يمنعوه ما دام في ديارهم ، فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه في المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم . فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ؛ فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق : لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدًا ، إنا لصدُّر في الحرب ، صدُّق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسُرَّ عليه الصلاة والسلام بقول سعد ، وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

هذا هو روح الجيش قبيل بدر ، يعبر عنه رجل من المهاجرين ، وآخر من الأنصار ، نفوس صاغها الإيمان ، وصقلتها الطاعة والتدريب والنظام ، وذلك هو عقل بطل الأبطال يتجلى في المشورة والأدب والوفاء . أما المشورة ففي ترديده : أشيروا على أيها الناس ، وهو يعلم أنه لو خاض بهم البحر ، أو اجتاز القفر ، ما خالفوه ؛ وأما الأدب والوفاء فهو استئذانه الأنصار قبل أن يعرضهم لحرب لم يبايعوه على مثلها من قبل .

فلما خاض المعركة انتصرت القلة في العدد والعُدَّة ، على الكثرة ، والفريقان عرب وشجعان ، وإنما رجح جيش محمد كل هذا الرجحان بأمرين ظاهرين : الأول النظام ، والثاني احتقار الموت . وشهد الناس في بدر معجزة ذلك النظام حين أغارت خيل المشركين على الصفوف المرصوفة ، فلم تحركها من مكانها قدمًا واحدة ، وارتدت عنها حائرة ، إذ رأت ما لم تسمع به من قبل ؛ ذلك أن للخيـ

إذا أقبات في زحفها مغيرة رهبة يعرفها من مارسوا الحروب ، وقلما تثبت لها الراجلة .
شهد الناس في بدر ثلاثمائة رجل ربّاهم محمد ونظّمهم ، يستفتحون الجهاد في
سبيل الله على الأحمر والأسود والأبيض ، فتفتح لهم الأرض ، فعلم الناس منذ
يوم بدر ما للنظام واحتقار الموت من قوّة ، كما رأوا بعدُ في الخندق كيف يمكن
قوماً أحبّوا الحقّ أكثر مما يحبّون الحياة أن يردّوا الأحزاب عن مدينتهم ، وبأن
كذلك كيف يرجع النظام على العدد والعدّة ؛ ففي وقعة الخندق أو الأحزاب ذر^(١)
قرنُ النفاق ، ونقض اليهود عهد رسول الله ، وجاء العدوّ المدينة من فوقها ، ومن
أسفل منها ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن التدريب المحمدي للكتائب
المرصوصة ، وتلك القيادة الماهرة التي لا تحرج بشيء ، ولا تضيق ذرعاً ، وذلك
العقل الخصب ، قد أتمّ بالرأى والحيلة ما بدأت الشجاعة والصبر ، وانصرفت
الأحزاب عن المدينة في ظلام الليل ، يركب زعيمها ناقته ، فيسوقها ولما يُفكّ
عقالها ، فتقوم على ثلاث .

تلك القيادة المحمدية الماهرة ، هي التي أنقذت المدينة كذلك من قبل في
أحد ، فسارعت ولما يُفكّ الجيش من صدمته إلى الحركة والظهور للعدوّ بمظهر
الطالب له ، المتقدم إليه ، ولولا هذه المسارعة التي لا تكون إلا للنظام والطاعة ،
لدممت قریش المدينة ، وقضت على بقية جيش المسلمين فيها . تلك القيادة
الماهرة لجند مدرّب ، هي التي جعلت قریشاً تراجع ، والمهزومون بالأمس يتعقبون
الذين انتصروا عليهم .

هذه بعض مَثَلٍ نعرضها موجزة ، وتجدون تفصيلها في كتب التاريخ ، ليتبين
قدر محمد صلى الله عليه وسلم رجل دولة ، وما أوتى من حسن السياسة ، وحسن
القيادة ، ولتتجلى لطلاب الحق ذاته الجامعة .

ومن العجيب أن هذه التدريبات العسكرية ، والوقعات والحروب والمكايد

والحيل ، والرأى والتدبير الذى أشرنا إلى شىء منه فى هذا الحديث وما قبله ، قد أخرج الدولة الحمديدية ، التى صارت أساس أعظم الأمبراطوريات فى تاريخ البشر ، من غير أن تكون مقصودة لذاتها ، وإنا لنكون مقصرين نحو الحق التاريخى ، ونحو ما نعتقده نتيجة للبحث ، إذا تركنا الناس يتوهمون أن الدولة كانت غرضاً أصلياً للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل الواقع أنها جاءت عرضاً ، ووجدت كوسيلة صالحة للغرض الأول ، وهو القضاء على الشرك ، وإحلال الإيمان بالله وحده محل عبادة الأوثان ، فإن مكة لما بلغت فى القسوة ، وأسرفت فى اضطهاد المسلمين ، خابت كل مساعى الرسول السامية فى أن يجد للعقيدة الإسلامية حياة حرة ، وللدعوة مجالاً طليقاً ، فاجأ إلى دفع القوة بالقوة ، مطالباً بحرية الأديان كلها :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ ۖ .

كان كل هذا الصراع المسلح يرمى إلى شىء أساسى واحد ، وهو تقرير حرية العقيدة فى أشد الأقوام همجية ، فظهرت صفات بطل الأبطال فى التنظيم وبناء الدولة ، كما ظهرت من قبل خارقة فى الثبات على المبدأ ، والصبر على الأذى ، وبيان الحجة ، واستقامة الوسيلة ، ووضوح الغاية .

وستتحدث إليكم فيما بعد إن شاء الله عن الحرية الدينية ، وكيف كانت هى الغرض الحقيقى لسياسة بطل الأبطال فى المدينة .

١١ - الناحية العسكرية في بدر

حدثني هنا محصور في وادي بدر الضيق ، متجاوزاً به مقدمات بدر ونتائجها ، غير أني لا أستطيع أن أصف المعركة في بدر دون أن أشير إلى الحالة العسكرية في الجزيرة قبل بدر ، وما صارت إليه بعد بدر .

لقد كان العرب على علم تامّ بضروب القتال كما هي الحال في العالم في ذلك العصر ، فكانوا يعرفون فنونه وأدواته كما تعرفها الأمم المحيطة بها ، وكانت قريش بين العرب ممتازة بالثروة والرحلة والإحاطة بما يحدث في العالم قبل غيرها من القبائل العربية ، كما كانت تتمتع بالسيادة الدينية في الجزيرة ، وتتمتع بتجمع قواها في مكة ، مما يمكنها دائماً من سرعة الحشد والتعبئة . لكل ذلك آلت إليها السيطرة العسكرية ، كما آلت إليها السيطرة الدينية ، فكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم انتزاع هذه السيطرة من قريش ، لينتزعها من الجزيرة كلها . ولم يكن من الممكن بعد تجربة دامت ثلاث عشرة سنة يدعو فيها إلى دينه بالوسائل السلمية ، دون أن يصل إلى حرية العقيدة بسبب هذه السيطرة العسكرية التي لقريش ، ألا ينازعها هذه السيطرة ، فغزوة بدر لم تكن أمراً عرضياً ، ولا كان المقصود بها في الواقع مجرد الاستيلاء على غير قريش ، بل كانت مقصودة للتمكن من ضرب قريش في قوتها الحربية ، وقد أدرك الرسول قبل أن أصحابه أصبحوا من النظام الذي بثه فيهم ، والروح المعنوى الذي سرى في نفوسهم ، من اجتماع الكلمة والفناء في سبيل الحق ، بحيث يستطيع أن يلقي بهم سادة الجزيرة العربية في أول معركة منظمة ، ولولم يكن يعلم هذا ، ويقصد إلى لقاء قريش مجتمعة ، لذهب إلى طريق الشام يلقي غيرها ،

ولكان ذلك أهون عليه ، لأنه يلقاها في مكان أبعد عن مكة من المكان الذي لقيها فيه ، فهو إذن لم يقصد قافلة التجارة لذاتها ، ولكنه أحب أن يلقي معها جيش قريش .

تقدم الرسول إلى بدر بكتيبة ليس لها من مُعدّات الجيوش ما لقريش ، فقد كانت الخيالة فيها لا تزيد على فارسين في رواية ، وثلاثة فرُسان في رواية أخرى ، ولم تكن لها دروع ولا سلاح غير السيوف ، بل لم يكن لها ما يكفي من الإبل لحمل العتاد والرحال . هذا على حين كان لقريش العدد والعُدّة ، فكان عدد فرُسانها مائة فارس ، وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من أصحاب الرسول ، وكان معها من الإبل ما يكفي لأن يذبحوا طعامهم عشرة كلّ يوم ، وكان كل ما يعرف من أنواع السلاح إذ ذاك متوافراً لها بسبب ثرائها ، واستعدادها الدائم للحرب ، وخصوصاً هذه المعركة ، ولكن شيئاً آخر عظيماً كان متوافراً لأصحاب الرسول ، فاستعاضوا به عما كان ينقصهم من العدد والعُدّة ؛ أما هذا الشيء العظيم فهو أمور ثلاثة :

الأول : النظام ، فإن التربية المحمدية سواء أكانت في صور العبادة ، أم تلقين عقيدة التوحيد ، أم إرجاع الأمر إلى الله مع حسن العمل ، أو الإيمان بالمساواة في عمل الدنيا والآخرة ، أو إثارة الشهادة في سبيل العقيدة على الحياة ، وما يتعلق بها من أحوال الأهل والعشيرة ، وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الرسول ، وأولى الأمر منهم - إن هذه التربية أحدثت فيهم قوّة جديدة لم يكن العرب يعرفونها من قبل ، تلك هي قوّة النظام التي رجحت بها كتيبة المؤمنين ، على جيش المشركين .

والثاني : القوة المعنوية التي ملأ بها الإسلام نفوسهم ، فإنهم من بين مشركي العرب كانوا يؤمنون بالبعث ، فهم لذلك لا يرون في الموت فناً مطلقاً ، بل يرون أن وراءه مع إدراك فضل الشهادة حياة أبقي وأسعد من هذه الحياة .

من أمثلة ذلك أن شاباً في السادسة عشرة من عمره كان في كتيبة المؤمنين ، فلما سمع الرسول يحرض المؤمنين على القتال ، ويَعِدُّهُمْ الجنة قال : إذن ليس بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات ، وهي تمرات كان يأكلها ، فقذفها ، وحمل بسيفه على المشركين ، فلم يزل يقاتل مستبسلاً حتى لقي الموت الذي يريده .

والثالث : وحدة القيادة ، فقد كان المسلمون ممتازين بها ، يتفانون في الإخلاص والطاعة لقائدهم ، وذلك من الأمور التي ضاعفت قواهم .

ولنذكر لذلك ما حدث في أثناء المعركة ، إذ رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقوّم الصف ، رجلاً خارجاً عن رفاقه في الصف ، فوكزه ، فقال الرجل : أوجعتني يا رسول الله ، فأقِدني منك ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اقتصّ لنفسك ، فقبل الرجل بطن النبي ، فقال النبي : ولم إذن ؟ قال : أردت أن يكون هذا آخر عهدي بالحياة .

تلك أهم الأسباب التي استعاض بها المؤمنون عما كان في جيشهم من نقص العدة والعدد ، ولا تظنوا أن قريشا كانت خائفة فاقدة للنظام والقوة العنوية ، فقد كان لديها أكمل نظام يعرفه العرب ، ولها من عزتها ، ومن حبّ المحافظة على سيطرتها العسكرية ، ومن الرغبة في الانتقام لحادثة نخلة وقتل ابن الحضرمي ، ومن العزم على الاحتفاظ بحرية التجارة ، وسلامة الطرق الموصلة لهذه التجارة ، ما جعلها تقاتل مستبسلة ، حتى إن رجلاً منها أقسم أن يرد الحوض وهو وسط جيش محمد ، فلما قطعت رجله قبل أن يصل إليه دفع نفسه إلى الحوض ، وهدم جزءاً منه برجله الأخرى . ولما جرح أبو جهل مرّ به رجل من المسلمين وهو في حشجة الموت ، فوضع قدمه على عنقه ، وقال : أرايت كيف أخزأك الله ؟ قال : وبم أخزاني ؟ أعارُ أن أقتل ؟ من هذا تدركون عظم مهمة الجيش الإسلامي في سبيل انتزاع السيطرة العسكرية التي كانت لقريش .

أما كيف وقعت المعركة نفسها ، فقد تقدّم الجيش الإسلامى من الشمال إلى الجنوب ، فلما وصل إلى ساحة بدر كانت على يمينته سلسلة من التلال المرتفعة ، وكذلك على يسارته سلسلة أخرى أقل ارتفاعاً .

وتقدم جيش المشركين ، وكان أمامه كُثبانٌ من الرمل تقع غرب وادى بدر ، وعلى يسارته أرض صخرية قليلة الارتفاع .

فى السهل الذى بين هذه الجبال وهذه الكُثبان وقع أول تصادم بين القوتين ، وكانت الليلة التى سبقت المعركة شاتية ، فهطل مطر غزير فى ناحية قريش ، وكان أقل غزارة فى ناحية المسلمين ، جعل مهمة قريش فى التقدم إلى ساحة بدر أشق من مهمة المسلمين ، ولما تقدموا فى الصباح استقبلت المشركين الشمس من المشرق ، وهم متجهون إليها ، فكانت من العوامل الطبيعية المؤذية لهم

نسبت المعركة كما تنشب المعارك فى ذلك العصر ، بفرسان يتقدمون الصفوف ويتصارعون ، فتقدم ثلاثة من بنى هاشم ، ولقيهم ثلاثة من صناديد المشركين ، وفى دقائق معدودة فتك المسلمون بأنسادهم ، فكان هذا استفتاحاً حسناً للقتال ، وهنا أمر رسول الله بذلك الأمر الحكيم ، أمر الكتيبة الإسلامية أن تتراص ، وألا تتحرك من مكانها ، وأن تصدّ بالنبال خيل العدو وهى تأتىها من جوانبها ، فرأت قريش لأول مرة كيف تثبت الراجلة أمام حملات خيالة غير هيابة ولا مرتبكة ، وللخيالة هيبة عظيمة فى هجومها ، يعرفها الذين مارسوا الحروب وشاهدوها ؛ حتى الوطيس ورسول الله يدعو ويحرض على القتال ، والمشركون على عديدهم وعدتهم واستبسألهم ، يحاربون قوماً قد امتنعوا بسيفوفهم ، وآثروا الموت على الحياة ، انتهى الأمر بهزيمة المشركين ، فانطلق المسلمون فى إثرهم ، وأثنخوا فيهم ، لا يلتفتون إلى نهب ولا سلب ، كمادة العرب فى ذلك العصر ، حتى انقلبت الرجعة القرشية فراراً مُحْزِياً ، وانكساراً غير مسبوق لقريش .

كانت قتلى قريش في هذه المعركة خمسة أمثال قتلى المسلمين ، وكان أسراهم مثل قتلاهم ، ولكن ليس المهم في بدر عدد من دفنت من القتلى ، ولا عدد الأسرى ، ولا مقدار الغنائم ، وإنما المهم هو أن قريشاً دفنت في وادى بدر سيادتها على الجزيرة العربية ، وليس المهم هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رجع بأعدائه مكبلين إلى يثرب ، وإنما الذى يهمه هو أنه رجع بالسيطرة العسكرية وقد انتقلت من مكة إلى المدينة .

رجع النبى إلى المدينة وقد ثبت أن النظام العسكرى الذى استحدثه هو نظام يفوق ما يعلمه أهل العصر ، فوضع فى بدر قواعد الجيش الإسلامى ، وكانت هذه الكتيبة نواة له .

ومنذ بدر والإسلام ينتشر ، وجيوشه تسير إلى المغرب والشرق ، تطوى الممالك ، وتثل العروش ، وتتغلب على العقبات بأمرين : حب النظام ، واحتقار الموت ؛ ولا يزال هذان الأمران دِعامَتَيِ النصر ، ولن ترجع للمسلمين سيادتهم الأولى حتى يقيموا جيوشهم على الأساسين اللذين وضعهما رسول الله ، واللذين مكنا له فى بدر برغم العُدَّة والعدد والبسالة التى كانت لخصومه .

هذان الأساسان - بلا ريب - هما حبّ النظام ، واحتقار الموت ، فاطلبوهما لتسودوا .

١٢ — دفاعه عن حرية العقيدة

وقفنا في الحديث السابق عند بيان قصد الرسول من حركاته العسكرية ، ووقعاته مع المشركين ، وقلنا : إن الأساس هو الوصول إلى حرية الدعوة ، بل إليها وإلى حرية العقيدة للأديان السماوية جميعاً ، وقلنا : إنه ليس أدل على هذا القصد من هدية الحديبية ، بل ليس أدل عليها من القرآن نفسه . انظروا إلى هذه الآيات :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظُلُمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ فالإذن بالقتال معلل باضطهاد العقيدة ، ومصادرة حرية الناس في أن يقولوا ربنا الله ، وتلك هي الآية التي شُرِعَ بها القتال ، ثم هذه الآية : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنَّ انْتِهَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ففيها أيضاً الأمر بالقتال معللاً بمنع الفتنة ، وهي الإكراه على تغيير العقيدة ، فإن انتهى الأعداء عن هذا الإكراه ترك أمرهم إلى الله ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ فالقتال هنا مُبَرَّرٌ بالدفاع عن الحرية ، على أن لا يتجاوزها إلى العدوان ثم انظروا إلى الآية الآتية كيف جعلت القتال مُبَرَّراً بالدفاع عن حرية الأديان السماوية جميعاً ، وجعلت الغاية منه أن يتمكن المسلمون من إقامة الصلاة ، والبر بالمساكين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٠﴾ .

واضح من كل هذه الآيات غرض الإسلام من القتال ، وهو منع الفتنة واضطهاد الناس ، وردم عن عقائدهم قسراً .

تلك الفتنة التي هي أكبر من القتل ، وأسوأ عاقبة من الحرب : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يَفْقَهُونَ كُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ . فغرض النبي كما هو جلي من القرآن ، هو الدفاع عن حرية العقيدة ، وقتال المشركين ، حتى يسلموا باحترام هذه الحرية .

ولما استقر لمحمد الأمر في المدينة ، وصفت أحوالها ، وخلصت له ، وأدرك أعداؤه أن لا أمل لهم في مهاجمتها ، ورجحت قوى الدولة على ما حول يثرب من المشركين واليهود ، كما استقرت هيئته في نفوس القبائل ، وسار بمحديه الركبان في جزيرة العرب كلها ، وأصبح تام السلطة على الطرق إلى مكة ، فخصرها وقضى على حرية تجارتها ، وصار بذلك قريباً من وضع السيف في غمده ، لحظ بثاقب نظره أن الساعة قد أتت لهذة مع مكة ، فسار في جيش من الأنصار والمهاجرين وحلفائهم ، وساق الهدى ، وأعلن أنه يريد الحج ولا يريد قتالا .

سمعت به قريش ، فخرجت لتصدّه عن البيت ، واستعظمت أن يدخل عليها هذا الدخول ، وأبت أن يتحدث العرب بأن محمداً طاف بالبيت ، وجاء مكة في منة من قوته ، فتحالفوا وتعاهدوا على ألا يدخلها عليهم أبداً ، وكان جيش محمد على تمام الاستعداد لاقحام ديار المشركين إذا منعه في الشهر الحرام ، من حق لجميع العرب ، وهو حج البيت ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يرغب

فى شىء آخر ، فقد عقد العزيمة منذ خرج من المدينة على ألا يقاتل ، وجعل السلم نُصب عينيه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يردّه عن عزمه شىء ، ولا يحوله عن مقصده أحد ، قد اجتمعت له العزيمة الصادقة والحكمة والأناة .

تلقى عَنَت قريش بالصبر ، فسلك طريقاً وعرّاً بأصحابه حتى لا يصطدم بأعدائه ، وحتى يعطيهم فرصة للتفكير فيما هم مُقدِّمون عليه ، وقال : لا تدعُونى قريش اليوم لخُطَّةٍ يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ، فلما نزل الحديبية فى حرم مكة بالغت قريش فى عنادها . وأبوا إلا أن يرجع بالهدى وقد ساقه ، وألاً يطوف بالبيت ، وقد أحرم للحج والعُمرة .

ولما أرسل من يؤكّد لهم حسن قصده ، عقروا بعيره ، وهَمُّوا بقتله ، فاستمر فى إفاد الرسل ، والنصح لهم ، فما ازدادوا إلا ضُغياناً وكبراً ، وبغشوا رجالاً ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر محمد ليصيبوا لهم من أصحابه ، فأخذوا أخذاً ، وأتى بهم إلى رسول الله ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم .

أنتج هذا الصبر الحمدي نتيجة سريعة ، فعلمت العرب أنه لا يريد قتالاً ، ولا يضر شراً ، وأخذ أحسن حلفاء قريش ينفُضون أيديهم من إنمها ، وأعلن زعيم الإحاشيش أنه لا يرضى عن صدّ الناس عن البيت ، وأنهم لم يحالفوا قريشاً على شىء من هذا ، ونصح لهم إخوانهم من ثقيف بعدم التعرّض ل محمد ، وأرهبوهم من بأس المؤمنين معه ، ودنت بذلك الغاية التى أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى المهادنة ، وإحلال السلم محل القتال ، فجاء سهيل بن عمرو مفوّضاً من قريش ، ليصالحه على أن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى فى العام القابل ، فيحجّ ويقيم فى مكة ثلاثة أيام ، بعد أن تخلّوها له قريش . شقّ على المسلمين أن يرجعوا ، ولكن الرسول قبل ذلك ، وجرت المفاوضات على هُدنة لعشر سنين ، فاشتترط قريش أن من يلجأ فى أثناءها إلى محمد من غير إذن وليّه يردّه إلى قريش

ومعاهدتها ، وألا ترد قریش وحلفاؤها من يلجأ إليها من أصحاب محمد .

فلما قبل الرسول هذا الشرط وثب عمر بن الخطاب ، فأتى النبي ، فقال :
يا رسول الله ، أأنت برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو أسنا بالمسلمين ؟ قال :
بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟
قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني .

كاد الناس يهلكون مما دخل عليهم من أمر هذا الصالح وشروطه ،
ورجوعهم عن زيارة البيت ، ولكن التربية الحمدية ، والعزيمة القوية التي أظهرها
الرسول بإصراره على إقامة السلم ، أقرت الأمور في نصابها . فلما جلسوا لكتابة
العقد ، تجلّى صبره مرة أخرى ، فإنه دعا على بن أبي طالب ، وقال له : اكتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مفضّ قریش سهيل بن عمرو : أمسك ، لا أعرف
الرحمن الرحيم ، بل اكتب : باسمك اللهم ، قال رسول الله : اكتب باسمك
الله ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فقال
سهيل : أمسك ، لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك
واسم أبيك ، قال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، وهنا
يظهر إنصاف محمد ، وسعة صدره ، ويتجلّى سرّ من أسرار عظّمته ، وهو قصده
دائماً إلى الجوهرى من الأمر ، واستصغاره للأشكال والرسومات .

عقدت الهدنة ، ورجع المسلمون ؟ وهم كارهون ، ووسوس الشيطان في نفوس
بعض الناس لما قبل الرسول شرط تسليم من لجأ إليه على ألا يطلب من لجأ إلى
عدوّه ، وأن يرجع عن الحجّ كما أرادت قریش بعد أن أحرم له ، ولكن الرسول
صلى الله عليه وسلم لم يشغله شيء إلا الوصول إلى حرية الدعوة في ظلال السلم ،
ويعلم أن ذلك هو الفوز

وبيناهم في الطريق نزلت سورة الفتح ، فسمى القرآن هذا الصلح البغيض

فَتَحًّا مَبِينًا ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ ، وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ . وقد تحقق بعد
صدقُ نظر الرسول ، ووعدُ الله ، فدخل الناس في دينه أفواجا ، ولم يمض سنتان
على صلح الحُدَيْبِيَّة حتى دخل في دين الله أضعاف من دخلوا في العشرين سَنَةً
السابقة ، فكانت هذه الهدنة التي أَرادها الرسول على رغم أنف أصحابه ، ورغم
أنف قريش وعنادها وعنيتها ، بركة على الإسلام ، لم يَرَ قبلها فتحاً أعظم منها .
وقد انقلب حتى ذلك الشرط البغيض من تسليم اللاجئ المؤمن إلى الكفار يؤذونه
ويفتنونه إلى الخير . فكانت قريش بعد سنة من الصلح تحاول التخلص منه ،
وأن يقبل محمد صلى الله عليه وسلم إلغائه ، وذلك أن بعض المستضعفين من المسلمين
كانوا يلجئون إلى النبي فيسلمهم ، وفاء بعده ، فلما سلم أبا بصير فرّ إلى جهة في
ساحل البحر ، وصار يفرّ إليه أمثاله ممن لا يستطيعون الالتجاء إلى المدينة ، حتى
تكاثروا ، وقطعوا الطريق على تجارة مكة ، وعاد إليها البلاء وضجت ، واستجارت
بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسألته بصلّة الرّحم أن يؤوئى أبا بصير وإخوانه ، وأن
يعفيها من ذلك الشرط ، ويدخل من يلجأ إليه في عهده ، فقبل ، وكانت هذه
آية من آيات السياسة الحمديّة ، وفضلا من الله على أخلص عباده . قبل النبي
رجاء أعدائه ، فأمن لهم تجارتهم ، وأثبت أنه لا يريد بالحرب إلّا تقرير حرّية
الدعوة ، وحرّية العقيدة ، وأنه لا يريد نهب تجارة مكة ، ولا الانتقام منها كما يظن
بعض كتاب الملل الأخرى .

فهو الذي كبح جماح جيشه ليقبل شرطاً بغيضاً في سبيل السلم عشر سنين ،
في الوقت الذي تمت سيطرته على طرق المواصلات التجارية لمكة في الشمال ، بل
كان في مكنته أن يتعرض لطريق الجنوب بين مكة والطائف ، واستدعاء

أبى بصير وصحبه ، وهو غير مسئول عنهم ، ممتعاً بالسلم الذى أراد أن يبين فساد
ماذهب إليه هؤلاء الكتاب .

ولما اطمأن إلى صلاح يكفل له الأمن من ناحية قریش ، اتجه إلى مكاتبة
الملوك والعظماء فى أنحاء العالم ، يدعوهم إلى دينه ، ووجه حركاته العسكرية إلى
الروم ، الذين أخذوا يقاتلون دعاة الإسلام ، ويضطهدون الدعوة المحمدية ، فكان
صلى الله عليه وسلم بارعاً ، بعيد النظر فى اغتنام أول فرصة لنقل ميدان الكفاح
العسكرى بسرعة من قلب الجزيرة إلى أطرافها ، فاستشعر العرب سمو مطلبه ،
وبُعد غايته ، وبذلك جمعهم تحت لواء القومية المتحدة ، فكانوا عدّة صالحة
لدعوته العالية .

سارع إلى العمل ، وقد أدرك بثاقب بصره أن الدولة الرومانية لن تصبر على
ظهور دولة للعرب بالمدينة . وأنها سائرة إليه فى النهاية ، وأنه ماغزى قوم قط فى عُقرِ
دارهم إلا ذأوا ، فنقل الميدان بسرعة مدهشة ، تدل على فطنة فى السياسة ، ودراية
فى الحرب منقطعة النظير .

ومنذ أن غزا الروم فى مؤتة ، وسهام العرب ، وآمالها تتجه إلى غاية أسمى
من الثأر والانتقام والنهب ، وحالتهم المعنوية تسمو من درك التناحر الأهلى إلى
مقام الكفاح العالمى ، لغرض أعلى من متاع الدنيا .

وهكذا تدرّج محمد صلى الله عليه وسلم من العشيرة إلى الوطن ، إلى القومية ، إلى
الدولة العالمية ، فاتخذ لهذه الدولة العالمية العرب ، ونفخ فيهم من روحه ، وبعثهم
بالرسالة للأكاسرة والقيصرة ، فملوهم عليها ، وقامت دولة الإسلام ، لا تعرف
عصبية ، ولا عنصرية ، ولا لونا خالصاً ، ولا شيئاً غير التمتوى يمتاز الناس بها ،
ومنذ أن انصرف إلى الشمال بعد صلح الحديبية أدرك كل رجل ذى بصيرة من

خصومه سواء أكان في قلب الجزيرة أم في أطرافها ، أن واجبه أن ينطوى تحت اللواء الذي رفعه محمد صلى الله عليه وسلم للأمة المشتتة المتناحرة المحترقة في نظر جيرانها من الروم والفرس ، فسارع إلى هذا اللواء خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص بطلا قریش ، وبطلا الإسلام فيما بعد ، وسيدا مخزوم وسهم ، أشد بطون قریش عداوة ل محمد ودعوته ، فكان هذا فاتح العراق وبطل المشرق ، وذلك فاتح مصر وبطل المغرب .

نقضت قریش لقصر نظرها ، عهد الحُدَيْبِيَّة لما ظنت أنه تورط في قتال الروم ، فنصرتُ بكَراً على خُزَاعَةِ حُلَفَاءِ النَّبِيِّ ، فسارع كما هي عادته بصدق عزيمة ، وحسن فِراسة ، إلى قبول نَكْثِهَا للعهد ، ورفض تجديد العقد وعبأ قواه ، وكنم سره ، وتحرك في عشرة آلاف إلى مكة ، فدخلها بغير حرب .

وأقول بغير حرب لأن المقاومة الضعيفة التي أبدأها عِكرمة ، وصَفْوَان ، وسُهَيْل في الجهة التي دخل منها خالد ، لا تدل على شيء غير استسلام مكة ، وعجز قریش التام .

وبفتح مكة تَوَجَّت سياسة الرسول الحسنة ، وحكمته في تصريف الأمور بأعظم جزاء من الله ، واستقرت الدولة المحمدية في جزيرة العرب على أقوى الدعائم ، وأمتن الأسس ، ورجع البيت كما كان على عهد إبراهيم مقراً للتوحيد ، مُنْزَهاً عن الشرك ، قبلة لعاكفين والقائمين والركع السجود .

١٣ - مُثُل من سياسته.

تكلمنا في الأحاديث السابقة عن حسن سياسته وحكمته في تصريف الأمور ،
فتناولنا بعض دعائم هذه السياسة ، وخططها الرئيسة ، لتبين عظم هذه الناحية في
ذات بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم .

والآن نريد أن نسوق بعض الأمثلة من تصرفاته في بعض المواقف والحوادث
الطارئة ، لتتجلى صورة الكياسة ، وسلامة الذوق ، وحسن التقدير ، ونكون بذلك
قد أثبتنا على قدر جهدنا شيئاً من صفاته وأخلاقه ، يقرب إلى الأذهان مثله الكامل .
وهاكم موقفه مع عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين ، وسيد الخزرج
عقب وقعة بني المصطلق^(١) .

كان قوم عبد الله حين جاء النبي إلى يثرب مهاجراً ، ينظمون له الخرز
ليتوجوه ، فلما عظم شأن الرسول تداعى سلطان عبد الله ، وأضمر الشر ، وظهر
ما في نفسه يوم بنى المصطلق والرسول في شغل بعدوه ، فكاد عبد الله يرسلها فتنة
تحرم المسلمين ثمار نصرهم ، بل تذهب بريحتهم .

ذلك أن أجيراً لعمر بن الخطاب ازدحم على ماء مع رجل من حلفاء الأنصار ،
فاقتتلا ، فصرخ الأجير : يا معشر المهاجرين ، وصرخ الآخر : يا معشر الأنصار ،
فغضب عبد الله بن أبي ، وقال : أَوْقَدَ فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ،
والله ما أعدُّنا وجلايب^(٢) قريش هذه إلا كما قال الأول : سَمَنَ كَلْبَكَ
يَا كَلَّكْ ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

(١) بنو المصطلق : من خزاعة ؛ وقد غزاهم النبي بالمريسيع في شعبان سنة ست .

(٢) جلايب قريش : هو لقب لمن كان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون .
وأصل الجلايب الأزر الغلاظ ، واحداً جلاب ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقبهم بذلك (من
شرح أبي ذر على السيرة) .

ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن الأرقم ، فمضى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مَرُّهُ بِعَبَّادَ بْنِ بَشْرٍ فليقتله ، فقال صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس في ساعة مبكرة ، ما كان الرسول يروح فيها ، فمضى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسوا ، وليلتهم حتى أصبحوا ، وصدر يوم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياماً . وهكذا نهك أبدانهم بالسير ، ليصرفهم عن الحديث في الفتنة ، فلما بلغ المدينة جاءه عبد الله بن عبد الله لما بلغه ما كان من أمر أبيه . فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل أبي ، فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمُرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل تترفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا ، وجعل بعد ذلك إذا حدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قات لي : اقتله ، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ؛ فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

في هذه القصة الصغيرة ترون كيف توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر والأناة في أخرج الأوقات ، وترون حزمه في كبح جماح الفتنة بالسير ليل نهار، حتى

صرف الجيش بالنَّصَب عن أن يَلِجَ فيها ، وفي هذه القصة صورة موفقة من الرفق في السياسة ، والحزم فيها .

ثم ها كم مثلاً آخر : كان رسول الله يوزع العطايا بعد حُنين فوقف عليه رجل من تميم ، فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم ، فقال رسول الله : أجل ، فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت . فغضب النبي ، وقال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندي ، فعند من يكون ؟ فقال عمر : يا رسول الله ألا أقتله ، فقال : لا ، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين ، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .

وقد كانت الخوارج المتشددة بعد ذلك في تميم .

ولما أعطى النبي قريشاً وقبائل العرب ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، كثرت من الأنصار القالة حتى قال بعضهم : لقي والله الرسول قومه ، فجمعهم النبي ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى ، وجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بل الله ورسوله آمنٌ وأفضلُ ، ثم قال : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيب ؟ لله ورسوله المنُّ الفضلُ . قال : أما والله لو شئتم لقتلتم ، فلصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخدولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، أو جدتم يا معشر الأنصار من لعاعة^(١) من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفس محمد بيده : لولا الهجرة لكنت امراً من

(١) اللعاعة : واحدة الامعاع ، وهو النبات الأخضر قليل البقاء ، ومنه قولهم : مابق في

الدنيا إلا لعاعة أى بقية يسيرة ، ومنه الحديث : « أوجدتم ... » اللسان .

الأنصار ، ولو سلك الناسُ شِعْباً وسلك الأنصارُ شِعْباً لسلك شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحامهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

هذه العبارة الآخذة بالقلوب ، والصاعدة بالنفوس البشرية إلى درجة الملائكة ، والقاتلة للفتنة ، والمنعشة للأرواح ، تفسر لنا كيف كان رسول الله يجمع الناس على غرض واحد بوسائل شتى . لقد أتى بسعة الصدر ، وحسن التصرف بما يشبه المستحيل ، فجمع أمة لم تكن لتجتمع إلا على مثل التربية والتدبير الحمدي .

جاءه وفد من بنى الحارث بن كعب ، وكان قد بعث فيهم خالد بن الوليد ، فقال : لو أن خالداً لم يكتب إلي أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا ، لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم ، فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ، وما حمدنا خالداً ، قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك ، قال : صدقتم ، ثم قال : بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا : لم نكون نغلب أحداً ، قال : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ، قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبداً أحداً بظلم ، قال : صدقتم .

انظروا إلى رده : « فَمَنْ حمدتم ؟ » لتتصوروا الأناء وسعة الصدر ، وهما من أسس السياسة الحمدية .

وكان من دواعي النجاح في سياسة الرسول زيادة على أخذ الأمور بالرفق ، وحسن المعاملة ، فِرَاسته التي لا تخيب في الرجال ، وتطاعه إلى غائب الأمر بحسن الاستخبار ، فقد كان أعرف الناس بالناس ، وأعرف العرب بحسنات العرب وسميئاتهم ، ولهجاتهم ، وما يحبون ، وما يكرهون ، فهو يستقصى دائماً الأخبار ، ويكنم ما يكره ذبوعه منها ، ففراسته في سهيل بن عمرو مثلاً وهو أسير ، قد تحققت بعد سبع سنين ، لما همت مكة بالردة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فقدت قريش

أسرى بدر، وكان عمر يعارض في الفداء، فاستأذن رسول الله في أن ينزع ثِيَّتَيْ سَهِيل بن عمرو، ليدلعه لسانه، كي لا يقوم على الرسول خطيباً بعدها في موطن أبداً، ثأبى الرسول، وقال: لا أُمَثِّلُ به، فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، وعسى أن يقوم مقاماً لا تدمه. فلما ارتدت العرب، وهم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام وخافهم عَتَّاب بن أسيد عامل النبي على مكة فتواري، قام سهيل بن عمرو، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس، وكفوا عما هموا به، وظهر عَتَّاب، واستقرت الأمور.

ذلك هو المقام الذي أراده رسول الله في رده على عمر بن الخطاب، وتلك هي فِرَاسَةُ الرسول في الرجال، تحققت بعد سبع سنين.

ولما أخذ الخمسَ من غنائم هوازن، وزَّعه بين أعدائه بالأمس، فأعطى أبا سفيان، وابنه معاوية، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وخويط بن عبد العزى، والحارث بن هشام، وكثيراً غيرهم، ولم يدع لأحد من المؤلفَةِ قلوبهم حاجة إلا قضاها، وبذل للشعراء مثل ابن مرداس حتى أرضاهم. فلم يكن عنصر الجرد والبذل عنصرًا مفقوداً في سياسته صلى الله عليه وسلم.

جاء نفر إلى الرسول، فقالوا: إنا بنينا مسجداً لدى العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فوعدهم أن يأتيهم بعد أن يرجع من غزوة تبوك، وكان قد عزم عليها، فلما رجع علم أنهم يتآمرون فيه على الشر والفتنة، فأمر به أن يحرق، فأحرق، وفر من فيه، وهو مسجد الضَّرار الذي يقول فيه القرآن: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيفًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكذلك بلغه أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سُوَيْلَم اليهودي يثبтон

الناس عن رسول الله والخروج معه لغزو الروم ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل ، وتفرق من في البيت .

في هذين الثلثين ترون محمداً الواسع الصدر اللين العريكة المتسامح يحرق مسجداً وبيتاً للفتنة والتآمر ، ذلك لأن محمداً رجل دولة حاذق ، يداوى كل حالة بما يناسبها من الرفق والشفقة ، وكان يكره العُجب والتظاهر ، وليس في كل حياته شيء منه ، ولكنه أمر به حين دخل إلى مكة بعد هدنة الحديبية ، وقد تحدثت قريش أن محمداً وأصحابه في عُسر وشدة ، فصَفَّوا له عند دار الندوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليماني ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه ، حتى إذا واراها البيت منهم ، واستلم الركن اليماني مشى ، حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هروا لذلك ثلاثة أطواف ، ومشى ساثرها ، وقد صنع ذلك لما بلغه من قولهم عن ضعفه وضعف أصحابه .

ولما حاصر الأحزاب المدينة ، ونقض بنو قريظة عهدهم ، وانتهى إلى النبي وأصحابه الخبر ، بعث سعد بن مُعاذ وسعد بن عباد ومن معهم ليحققوا له الخبر ، وقال لهم : إن كان حقاً ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فاحْثُوا إلى حُثْنَا أعرفه ، ولا تَقْتُوا في أعضاء الناس ، وإن كان الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس ، فلما رجعوا سلموا على الرسول ، ولمَّحوا إليه بأن قريظة غدرت بعهده ، فقال صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

فأتم ترون في هاتين القصتين حكمة القائد الأعلى في بث الرعب في نفس العدو بالتظاهر بالقوة ، والحفاظة على الروح المعنوي عند الانصار ، بالتظاهر بدمم الاكتراث ، والتصغير من شأن العدو .

كان صلى الله عليه وسلم حسن الاستخبار ، حسن التكتيم للأسرار ، وكان

من بعض ما يلجأ إليه من إخفاء حركاته العسكرية أن يكتب للقائد كتاباً يأمره فيه ألا يفرضه إلا بعد أن يصل إلى مكان معين ، أو بعد أن يسير زمناً معيناً .

كان ثابت الرأي ، صادق العزيمة ، مداخله مُجَبَّبٌ ولا زهو ، ذهب بسياسة اللين إلى منتهى حكمته ، ولجأ إلى القتال لما لم يبق إلا القتال دفاعاً عن النفس والعقيدة ، فأظهر في الصبر واللين آيات السياسة ، وفي الجهاد والقتال غايات البراعة ، اتسع صدره للرجال والحوادث ، فأثر بشخصه وقوله وعمله في جميع من حوله ، ومن اتصل به ، فكان مدرسة للرجال أخرجت من فتحوا الأرض ، ونظموا الممالك ممن لم يشتغلوا في مكيدة ، ولا استعجزوا في شدة .

١٣ - أثر الدعوة المحمدية

حينما هممت بالتحدث إليكم عن أثر الدعوة المحمدية كنت أظن أنني أستطيع أن أكتب كلمة أجمع فيها أطراف القول في هذا الموضوع ، ولكني وقد شرعت في جمع هذه الأطراف ، وجدت أن هذا الموضوع لا يلزم بأطرافه إلا مجلدات ، فعزمت على حصره في دائرة يسمح بها هذا الحديث ، فلا أتعرض إلا للآثار الخالدة للدعوة المحمدية ، الآثار التي لا يحدها مكان ولا زمان ، وأن أتخير منها ما هو واضح ، وما هو موضع إعجاب الناس كافة ، مهما اختلفت عقائدهم أو مذاهبهم ، وكعلّي بهذا أضع أمامكم مرة أخرى صورة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم تكمل تلك النواحي البارزة في حياته الخالدة .

وأول ما خطر أن أوجه تفكيركم إليه ، هو أثر هذه الدعوة من الناحية الاجتماعية ، في شعب لم يكن يصلح لشيء ، فأصبح في بضع سنين صالحاً لحل

الرسالة التي وصلت إلى أطراف المشرق ، في سنين معدودة ، هي أقصر من الفترة التي انقضت بيننا وبين الحرب العالمية ، أى في أقل من عشرين سنة .

كان الأثر البارز السريع لهذه الدعوة تغيير أمة تغييراً شاملاً حاسماً ، بحيث أصبحت شيئاً آخر . تلك هي الأمة التي نشأت فيها الدعوة ، الأمة العربية .

كان العرب قوماً فوضى ، في قفر من الأرض ، موضع احتقار المتدينين من الفرس والرومان ، وآخر أمة يرجى فيها خير ، وينتظر لها أمر . كان العرب في جاهليتهم قبائل متنازعة على الحياة ، متنافسة في السؤدد ، يتنازعون على مواقع الغيث ومنابت العُشب ، كل قبيلة تعتزّ بقوتها ، وتفتخر بأنسابها ومآثرها ، وماخرها وعزّها إلا في أنها أغارت فغلبت ونهبت ، وأنها ظلمت وأفسدت ، فالظلم والنهب عندها هو المحمّدة ، وهو غرض الحياة .

انظروا إلى قول عمرو بن كلثوم :

بُغَاةَ ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَاهَا وَلَكِنَّا سَنَبْدُ ظَالِمِينَ

وقول زهير :

وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهَدَّمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

وانظروا قول القحطامي . وهو شاعر إسلامي يصف بقية الجاهلية في القبائل

الإسلامية :

فَمَنْ تَكُنَ الْحَضَارَةُ أَعْجَبْتَهُ فَأَيَّ رِجَالٍ بَادِيَةٍ تَرَانَا
وَمَنْ رِبَطَ الْجِحَاشِ فَإِنْ فِينَا قَنَّا سُلْبًا وَأَفْرَاسًا حِسَانَا
وَكُنْ إِذَا أَعْرَنَ عَلَى جَنَابٍ وَأَعُوْزَهْنَ نَهَبُ حَيْثُ كَانَا
أَعْرَنَ مِنَ الضَّبَابِ عَلَى حُلُولٍ وَضَبَّةَ إِنَّهُ مِنْ حَانَ حَانَا
وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

هذا الشعر يصوّر لنا الحالة العقلية التي كانت عليها القبائل العربية ، ويدلنا

على عظم الدعوة التي جعلت من قوم يفخرون بنهب أخيهام ، قوما يعتزون بنشر السلام ، والقانون ، والعدل بين الأبيض والأسود في آسيا وإفريقية ، هؤلاء الجفأة المتنابدون قد أصبحوا في جيل واحد رسل الحضارة والنظام . كان الرجل منهم لا يعترف إلا بقبيلته ، فإذا تنازعت لا يعترف إلا بالبطن الذي ينتسب إليه ، وينكر على غير عشيرته حق الحياة . وكان أفراد العشيرة لا يتعاونون ، ولا يتكاثفون على خير عام ، بل لا يفهمونه ، لأنهم ينكرون وجود الأمة العربية إنكارهم للبشرية . ويرون الحياة قائمة على الخصومة والعداء لكل أحد خارج عن نطاق العشيرة ، فكانت العشيرة على هذا الاعتبار عصابة متكافلة على حماية نفسها ، وإتيان الشر ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، والاعتزاز بالقدرة عليه ، وأنها تأتيه دائما . فجات الدعوة المحمدية تنقض كل ما يمسك به العربي من هذه الموارث ، فحلت هذه العصابة الموجهة للشر باسم العشيرة ، وأحلت محلها الأمة ، وأقامت الحقوق البشرية ، وجعلت التعاون على البر ، والتكافل على النظام العام ، والاتحاد على الفكر السامي والعقيدة الطاهرة ، مكان علاقة الدم ، تربط بين الناس في سفك الدم ، ونهب ما بأيديهم ، فقلبت بذلك نظرة العرب للحياة إلى تقيضها ، وجعلتها نظرة إنسانية إلهية ، بعد أن كانت بهيمية وحشية ، أحلت سلطان الشريعة فوق كل سلطان ، وجعلت هيمنة الدولة للخير العام فوق كل هيمنة ، وذهب القصاص الظالم ، وقام القصاص العادل ، وصارت المسؤولية الفردية للعشيرة ، مكان المسؤولية الاجتماعية لها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ وصارت العزة للشرع القاهر ، والسلطان القائم عليه ، وخرمت دعوى الجاهلية : يَا لَفُلَانٍ ، وأصبح كل داع فلبشرع دعوته ، وبالقانون انتصاره ، وبالعدل اعتصامه .

برزت المسؤولية الشخصية ، فما يغنى عن أحد دعوى الجاهلية ، ولا يغنى عن أحد

في ميدان العمل نسبه ، ولا حسبه ، ولا جاهه ، ولا ماله ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . إِنَّهَا إِن (١) تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ .

أصبح الناس بالدعوة الحمدية سواء ، لا شريف ولا وضيع ، خيرهم أحسنهم عملا ، وسيدهم أنفعهم ، وأكرمهم أتقاهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . انظروا إلى محمد صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع ، يعلق هذه المساواة للعرب على أنها للبشر كافة « أيها الناس كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

تلك هي الكلمة الخالدة التي كانت دستور الحكم فيما فتح العرب من الأرض ، فجعلت الفتح العربي بعيداً من رفعة قوم على قوم أو جنس ، فلم يصبه ما أصاب غيره من الفتوح ، وبقيت آثاره خالدة في المشرق المغرب .

قضت الدعوة الحمدية على التنافس والغلب بالكيفية التي سقتها ، وأحلت هذا التنافس والغلب لإقرار الحق ، وبسط الخير ، ولم يبق في الشرع الذي قبله العرب إلا تنافساً في الأعمال الصالحة ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهكذا حلت الأمة محل القبيلة ، والعدل مقام الغلبة ، والمساواة مكان التفاضل والعمل الصالح مكان الفخر بالأباء ، ومُثلت انقلوب حباً وسلاماً ، بعد أن مُثلت بغضاً ونزاعاً : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ إلى قوله : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

كان قلب العربي موزعاً بين آلهة شتى ، قد التبست عليه صفاتها وأفعالها ،

يفرغ إليها حيناً ، وينفر منها حيناً ، ويلتمس منها الخير ، فإن لم يظفر به هجرها وسبها ، كما يفعل الآن زُنوج السودان مع « كجورهم » فإنهم يسألونه المطر ، ويصبرون عليه ، فإذا يتسوا من الرحمة قتلوا « الكجور » وهو معبودهم .

لم تكن أمام العربي سبيل واضحة للعمل في هذه الحياة ، كما لم تكن له خطة بيئة لمعاملة الناس ، فلقنته الدعوة الحمدية الإيمان بالله واحد ، وهدته إلى الحلال والحرام في كل صغيرة وكبيرة ، فصار على بيئة من ربه ، وعلى بيئة من نفسه ، وعلى بيئة من عمله .

ومعاملة الناس علمته التوحيد في كل شيء ، علمته أن الله واحد ، وأن أصل البشر واحد ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن الأمم جميعا سواء ، وأن الأديان التي جاء بها الرسل واحدة ، لا تختلف في حقائقها ومقاصدها ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ... » الخ . ووجد له الخطة التي يعمل عليها في خاصة نفسه ومعاملة الناس ، وحدت الدعوة الحمدية نفس العربي ، ثم وحدت العرب جميعا ، وصاغت منهم أمة واحدة ، وحملتهم رسالة التوحيد إلى الناس كافة ، ليجعلهم أمة واحدة .

فهذه الأمة الواحدة المؤلفة من أرقى الموحدين هي التي انبعثت بسبب هذه الدعوة ، فلم يقف في سبيلها شيء ، لا كثرة العدد ، ولا قوة السلاح ، ولا العقائد الموروثة ، ولا عظمة الملوكة ، ولا تجبر الرؤساء ، بل كانت قدراً من الله بلغ غايته ، ومن ذا يرد على الله القدر .

هذا التوحيد هو عندى أظهر معجزات الدعوة الحمدية ، وليدرك الناس وجه الإعجاز ، يجب أن ينظروا الآن إلى جزيرة العرب نفسها وقد شملها الإسلام قرونا ، ثم عادت فيها سيرة الجاهلية بحالة أخف كثيرا ، بل أهون مائة مرة مما كانت عليه قبل ظهور رسالة التوحيد فيها ، وليُقَدَّرْ كم يلقى الذي يريد أن يبعث هذه الأمة مرة

أخرى من عَنَت؟ إن كثيرا من المصلحين ليتحطمون على عتبة الإصلاح قبل أن يصلوا إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة المحمدية في بضع سنين؟ إذا تصورتُم الحالة الحاضرة، وقستموها على الحالة وقت ظهور الدعوة يمكنكم أن تتصوروا أثر الدعوة المحمدية وقوتها وفضائها على هذه الأمة، وعلى الناس كافة

جاءت الدعوة المحمدية مع رسالة التوحيد هذه برسالة أخرى، هي رسالة التحرير، وتركت في هذه أثرها الخالد في الأمة العربية، وجميع الأمم كما تركت في الأولى. فصرخ مؤذن هذه الرسالة: الله أكبر، وتضاءلت بهذه الصرخة كل عظمة، وكل سيطرة أمام عظمة الله وسيطرته، وتحررت النفوس من الأوهام الباطلة، والعقائد الكاذبة، وصارت العبودية خالصة لله، يتساوى الناس فيها، ويتحررون بذلك من سواها.

وهذا الذي انفرد بالسلطان والسيادة وحق العبودية هو الله ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، تَحْيِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْعَنُونَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ وَيَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هُوَ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

بهذه المعاني السامية، والعبارات القوية، بهذه الآيات الكريمة وأمثالها تحررت النفوس من العبودية غير خالقتها البر الرحيم بها، الهادى لها إلى النور وإلى صراط مستقيم.

وكان الناس قبل الدعوة المحمدية عبيدا للملوك والزعماء، عبيدا للرؤساء الدينيين، عبيداً للأوهام والخرافات، عبيداً لِلْأَلَاكِ الْأَرْضِ وَمُلَاكِ الثَّرْوَةِ،

فتحرروا بهذه الدعوة الحمديّة ، تحرروا في أبدانهم ، وأعظم من ذلك أن تحررت نفوسهم بما وهبت لها الدعوة من عقيدة الخلود وعزته ، وأن عملها ليس أثراً بائداً ، بل سجلاً خالداً خلود قوانين الله في خليقته .

علّمت الدعوة الحمديّة ، الناس أن النفع والضربيد الله وحده ، وأن لا واسطة بين الإنسان وربّه ، وأن ربّه أقرب إليه من حبل الوريد^(١) ، وأنه معه حيثما كان ، وأن ليس لأحد سلطان على قلبه ، وليس للرسول نفسه إلا التبليغ والتعليم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿﴾ .

بهذا أدرك الإنسان مكانته ، ونال حريته في عقله وقلبه وفكره وعمله ، وبقى للدعوة الحمديّة أثرها الخالد في توحيد الناس وتحريرهم .

وليس أجمع لسياسته من وصفه لنفسه ، الذي رواه عليّ : «المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر رداًئى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرّة عيني في الصلاة » .

(١) حبل الوريد : عرق في العنق . أى نحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد تجوز بقرب الذات لقرب العلم ، لأنه موجب ، وحبل الوريد مثل في القرب . (انظر تفسير البضاوى) .

١٥ - عمر بن الخطاب

حدثتكم فيما سبق عن أثر الدعوة المحمدية من ناحية التوحيد والتحرير ، ولكي نستعين على تصور هذا الأثر في الفرد ، وفي المجتمع ، أضع أمامكم مثلاً عمر ابن الخطاب .

كان عمر في جاهليته فتى من فتيان قريش ، يغشى مجالس السوء ، وبؤر الشر ، وكانت مكة في ذلك العصر ممتازة بين حواضر الجزيرة بترفها ومنكرها ، تجذب طلاب الطرب واللهو ، ولم يكن عمر في هذه البيئة شاذاً ، بل كان مُعَلِّماً بالقُوَّة والغلظة ، معروفاً بالقسوة والشراسة ، مستعداً في كل الحالات للتسلط بالأذى على من يخالفه ، ولإثارة الفتنة والشغب فيما جل أو صغر . لذلك كان من أخطر فتيان مكة على الدعوة المحمدية ، وأنشطهم في أذى أتباعها ، فلم يسلموا من لسانه الجارح ، ويده الباطشة . ولما رآته مرة ليلي بنت أبي حنيفة وله رقة لم تكن تراها ، ذكرت ذلك لرجل من المسلمين ، فقال لها : أطمعت في إسلامه ؟! إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . هذا الذي لم يكن تلاميذ محمد يطعمون في هدايته أكثر من طمعمهم في هداية الحمار ، هو الذي اجتذبت به الدعوة ، فلما هذبته وصقلته ، أخرجت منه عمر أمير المؤمنين ، قاهر الفرس والروم ، وجعلت منه المثل الكامل ، في الرفق ، والإنصاف ، والعدل ، جعلت منه أكبر القضاة ، والسياسيين ، والملوك في تاريخ البشر . فملت الدعوة المحمدية فعلها في الفرد ، ثم شمل سحرها الجماعة ، فبدلت الناس غير الناس ، والأرض غير الأرض .

خلصت الفرد من سلطان العقائد الباطلة ، وأصاحت قلبه وفكره بالعقائد الصحيحة ، وهذبت نفسه بالشرائع القويمة ، والسنن الصالحة ، والقُدوة الحسنة

التي وجدها في المثل الأعلى ، في محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

أقوت الدعوة الحمديّة في نفوس أصحاب محمد حب العدل وحب الإنصاف ، في بيئته لا تعرف الحق إلا للقوة ، ولا تدين بالإنصاف إلا للسيف ، فوطأت النفوس للحق . انظروا إلى عمر بعد أن هذبتة الدعوة ، تعترضه امرأة وهو أمير المؤمنين يخطب الناس ، فيمسك من فؤره ، ويقول : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر ؛ وانظروا إليه وقد شجّ رأس أخته في الجاهلية يبكي وهو أمير المؤمنين لرؤية بئس ، ويخشى أن يلقي الله وفي الناس بئس .

تلك آثار الدعوة في نفوس جفّة العرب ، قد جعلت من رعاة الإبل والشاء وصغار التجار في مكة ، والفلاحين في المدينة ، رجالا ، كلما احتاج تاريخها إلى واحد منهم وجده مهياً للإمارة على الناس من كل الأجناس ، كأنما نشأ فيها ، ودرج لها ، رجلاً قوامين بالقسط ، رجلاً كما أرادهم القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

وليس نجاح الفتح العربي ، وانتشار الدعوة إلا أثرا لسحرها في تغيير النفوس ، وتوجيهها للخير . ولولا رجال أعدتهم المدرسة الحمديّة المثل العليا ، أعدتهم لإرشاد البشر وقيادته وحكمه ، لما تجاوز الفتح الإسلامي الجزيرة العربية ، ولذهبت آثاره بموت الرسول وارتداد الأعراب ، ولكن الشباب الذين طبعتهم الدعوة بطابعها استمروا يفيضون على جياهم ما أودعوا من فيض الرسول ثلاثين سنة بعد وفاته ، فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، الخلفاء الراشدون ، لم يكونوا إلا شلب الرسالة وقت أن أسرها وجهر بها محمد للناس .

وليتبين لنا واضحا أثر الدعوة المحمدية في نفوس الشباب الذين هاجروا للحبشة، وخالفوا آباءهم وكبراءهم في سبيل عقائدهم ، نذكر لكم موقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي ، فهو موقف يدل على امتلاك الدعوة المحمدية لنفوس من اجتذبتهم ، كما يبين لنا موضوع الدعوة نفسها ، كما فهمها المهاجرون والمهاجرات ، بل كما فهمها أنصارها في ذلك العصر .

خرج أوائلك السابقون لتلبية الرسول ومعهم من الفتيان والفتيات مَنْ ينتسبون لمختلف البطون في قريش ، ويتصلون بالقرابة لأعظم رجال مكة ، وأشد خصوم الدعوة ، وفيهم أبناء وبنات لأمثال المغيرة ، وسهيل بن عمرو ، وأممية ابن خلف ، فبعثت مكة في أثرهم رجلين من ذُهايتها : عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن أبي ربيعة ، ومعهم هدايا مما يستطرف النجاشي من متاع مكة ، له ولكل بطريق^(١) من بطارقتهم ، وأوصوهم أن يدفعا لكل بطريق بهديته قبل أن يكلمها النجاشي ، ثم يسلمها النجاشي هديته ، ويسألاه تسليم اللاجئين .

فلما وزعا الهدايا قالوا لكل بطريق منهم : قد أوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أئتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم مما عابوا عليهم ، فقالوا لهم : نعم . ثم سلما للنجاشي هداياه ، وقالوا له مثل الذي قالوا للبطارقة ، فأشار البطارقة بتسليمهم ، ولكن النجاشي أئى أن يأمر بذلك حتى يسمع قول المهاجرين ، فدعاهم وسألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فقام جعفر ، وكان اللاجئين قد اختاروه ، واتفقوا على أن يقول ما علموا ، وما أمر به النبي ، كائنا في ذلك ما هو كائن ، فقال : أيها الملك ، كئنا قوما أهل

جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثى الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، وضيقوا علينا الحناق ، فخرجنا إلى بلادك ، ورجبنا في جوارك ، ورجونا ألا ننظّم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم ، قال النجاشي : فاقراه ، فقرأ صدرّاً من « كهيعص » ، فبكى النجاشي ، ثم قال : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

هذه هي الدعوة كما فهمها شباب ذلك العصر ، بل كما فهمها أشدّ الناس تعلقاً بها ، وهذا هو أثرها منطبعاً في نفس ذلك الشاب القرشيّ ، يحدث عنها ملكاً من الملوك بثقة وبقوة .

إنكم لتلمسون في كلمات جعفر الموجزة صورة كاملة للدعوة الحمديّة ، والمجتمع الذي نشأ عنها ، فقد بدلت الدعوة وجهة نظر الفرد للحياة تبديلاً تامّاً ، كما قلبت أوضاع الاجتماع العربي إلى عكس ما اصطلاح الناس عليه ، وابتدعت كما يقول رسل قریش جديداً لم تعرفه العرب ، ولا غير العرب .

ذلك الجديد هو الرسالة الحمديّة ، وأثرها هو الانقلاب الذي شمل العرب وجيرانهم ، ولازلنا ولا يزال الناس في آثاره حتى آخر الدهر .

ظفرت الدعوة ، وطأطأت كما يقول « هيل » أمة لإرادة رجل واحد ، لأنه نفخ فيها من روحه إيماناً قوياً سامياً ، وأحلّ في قلبها الفضيلة خالصةً نقيةً ، ووجهها على جادة العظمة والفتح العالمى . ولقد كان الاتحاد والتعاون منكراً لا يعرفه العرب إلا فى حدود العشيرة ، وكان الكبر والفخر والجاه والمال أسمى ما يتطلع الناس إليه ، فلما نجحت الدعوة المحمدية قامت وحدة العرب على تضامن الأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعفاء ، فأصبحت المؤسسة حقاً مفروضاً على الأغنياء ، عليه يقوم تكافل المجتمع ، وعليه تقوم الدولة التى ولدتها الدعوة الجديدة .

تبدلت نظرة الفرد للحياة تبديلاً تاماً ، وانقلب النظام الاجتماعى بما ابتدع الإسلام من الأصول ، وما وضع من الشرائع .

وقد عبر العلامة « هيل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمة القوية :

« إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثراً فى تاريخ البشر ، وكلّ رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيراً عميقاً فى حضارة عصرهم وأقوامهم ، ولكننا لانعرف فى تاريخ البشر أن ديناً انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الإسلام ؛ ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيّداً مالِكاً لزمانه ولقومه كما كان محمد .

لقد أخرج أمة إلى الوجود ، ومكن لعبادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطُّهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحلّ النظام والتناسق والطاعة والعزّة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى » .

تلك بعض آثار الدعوة المحمدية فى الفرد ، وفى الجماعة ، وإنا نرجو أن نحدثكم فى المرة الآتية عن نواح شتى ما

تصحیحات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٥	١٧	رستم	رستم
١٨	١٩	بهذا	لهذا
٢١	١	عمر	عمرو
٢٢	٩	رضعته	رضعته
٤٤	٢	انقلب	تقلب
٤٨	٧	واضطهاد	والاضطهاد
٥٣	١٨	أعدائه	أعداءه
٥٥	١٢	فتنفعه	فتنفعه
٦٠	٩	أو إذا	إذا
٧٣	١	يظهر	يظهرها
٧٨	٥	فرار	فراراً
٨٨	١٩، ١٥	غير	عير
٨٩	١٩	من بين	دون
٩٣	١٣	وقاتلوا الذين	وقاتلوا في سبيل الله الذين
٩٨	١	أراد أن	أراد
١١١	١٣	ويدعو	والله يدعو

فهرس

صفحة	
١	(١) البحث عن الحق والثبات عليه .
٨	(٢) الشجاعة .
١٧	(٣) الوفاء .
٢٣	(٤) زهده وقناعته .
٣٢	(٥) تواضعه وتياسره .
٤٠	(٦) تعبده ونسكه .
٤٧	(٧) عفوه وصفحه .
٥٤	(٨) رحمته وبره .
٦٢	(٩) فصاحته وبلاغته .
٦٩	(١٠) حسن سياسته وحكمته في تصريف الأمور .
٨٨	(١١) الناحية العسكرية في بدر .
٩٣	(١٢) دفاعه عن حرية العقيدة .
١٠٠	(١٣) مثل من سياسته .
١٠٦	(١٤) أثر الدعوة المحمدية .
١١٣	(١٥) عمر بن الخطاب .
١١٨	تصحیحات .